احمد لطفي السيد باشا

تأملات

في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف
بمصر

مد لطفى السيد باشا

تأملات

فى الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

مقدمة

من مميزات العبقرية الصحيحة ، وأعنى بها العبقرية الأثينة ، لا العبقرية الاصطناعية التى تتولد بكسب المعارف أو الفنون ، أن تسبق بأثاثتها العصر الذى تنشأ فيه . فإذا كانت العبقرية فى إهاب شاعر ، سبق العصر بأخيلته وسبحاته الشعرية ، وإذا كانت فى إهاب فنان ، سبق العصر بما يبدع من الظلال والألوان والتعبيرات التى يفرغها فيما يخرج منه صورة أو تمثال . وإذا كانت فى إهاب مفكر ، سبق عصره بالتفرد فى الحس بما سوف تتمخض عنه النظامات وأوجه التقدم التى تسير فيها خطا الجماعات ، بحيث يرى واقعاً بالفعل ، ما يلوح لغيره من الناس انه مستحيل الوقوع . أما إذا كانت فى إهاب فيلسوف ، فإنها ترحل به عن عالم الناس إلى عالم هو له وحده ، فتخرج آثاره على اكتمال الفكرة فيها تغالب نزع الموت فى يد الجماهير ، ولا تربى وتؤتى أكلها حتى يكتمل الوعى الجماعى فيدرك ما فيها من جمال أو حق أو صدق . وأستاذنا الكبير صاحب هذه التأملات عبقرى أثين بطبعه . ظهرت أصالة عبقريته فى كل أطوار حياته العامة . فظهرت فى أسلوبه كما ظهرت فى نواحى تفكيره وفى اتساق فكرته ورتابة منطقه ووضوح غاياته وجلاء مراميه . ففيما نشرنا له من « المنتخاب » قبل عشر سنوات وما نشرنا

منها فى هذا العام ، وما ننشر اليوم فى « تأملات » دليل باسم واضح القسمات على أنه سبق عصره بمراحل بعيدة المدى قصية الغايات .

ففى العصر الذى ارتمت فيه السياسة المصرية فى أحضان فرنسا وتركيا ، نستنجد الأولى ونستعديها على انجلترا مستغلين ما بينهما من حزازات ومنافسة ونتعلق بخيط العنكبوت من علاقتنا بالعثمانيين مستغلين سيادتهم الاسمية على مصر ، نادى بالاستقلال ، محييا بذلك الفكرة الوطنية الصميمة التى قامت عليها الحركة العرابية . وإنى لأذكر أن أستاذنا ذكر فى مقال له أن مصر تطلب « الاستقلال التام » فاستعدى عليه السيد على يوسف صاحب المؤيد ورئيس حزب الإصلاح ، وهو إذ ذاك حزب السراى ، النيابة لتجره إلى موقف الاتهام . ذلك بأن الاستقلال التام فى ذلك العصر ، كان جريمة تستحق الجزاء .

قال بحرية المرأة فى عصر أظلمت فيه جوانب الحرية ، ودعا الطلبة إلى الاشتغال بالسياسة فى عصر كان فصل الطالب من معهده أهون على أصحاب السلطة من قلامة ظفر . وطالب بالدستور و بشر بحرية الفرد وأنحى على تدخل الحكومة فى شئون الأفراد لأن ذلك وجه من الاشتراكية التى لا تلائم الطور الذى كانت تجتازه مصر فى ذلك العصر ، وآمن بالتطور فى زمان دعا فيه بعض الزعماء إلى الطفرة ، فكأنه بعبقريته الأصيلة قد أدرك أكثر ما خفى على أهل عصره من مستقبل هذه الأمة ، ولا نزال حتى اليوم

نستقرئ فيما كتب ، تَنَقُّلَ الأمة المصرية فى مدارج فكراته التى ساورته منذ أكثر من أربعين سنة .

ليس عندى من تعليل لهذا وللكثير مما فاضت به صفحات « المنتخاب » و « التأملات » إلا أن أستاذنا ، مدّ الله فى عمره ، عبقرى أصيل العبقرية ، فظهر إثر ذلك صادقاً فى أسلوبه وتفكيره ومنطقه . وأقول على الجملة إنه عاش حياته صادقاً مع نفسه ، فصدق مع الناس ، وأيدته فى صدقه حوادث هذا الزمان .

اسماعيل مظهر

القدوة الحسنى

الأستاذ عبد العزيز بك فهمى

قد يجد المرء ذو الطمع على نفسه غضاضة أن يعلن عن صديقه فضائله لشخصيته أو محامده العامة ، لأن هذا يمسه عن قرب وينعكس لمعانه عليه على كل حال . فأوشك بالكاتب عن ذاته أو صديقه ، أن يبتسم له القارىء فيقول : مادح نفسه يقرئك السلام .

غير أن للواجب مآزق تلجىء إليها ضرورة القيام به وعلى الصحف أن لا يدع صغيرة ولا كبيرة من الحوادث النافعة فى التنبيه على خلق كريم أو الدالة على مشاعر عاليات ليتم للناس القدوة الحسنة ، وليكون آية للأعقاب يهتدون بها وتسكن أنفسهم إلى إيثار المنافع العمومية على المنافع الشخصية. عليها جميعاً ، حتى على الصحة وهى أنفس متاع فى الحياة . بهذه المثابة يجب علينا الحرص فى مسألة الأستاذ عبد العزيز ، تلك المسأله التى اشتغل بها الرأى العام نحو أسبوع .

يسرنا كما يسر صديقنا عبد العزيز بك وكل مصرى محب لبلاده ، أن يكون الرأى العام فى بلادنا يقظا ملتفتاً لجميع الحوادث مقدراً رجاله الأمناء قدرهم يطالبهم مطالبة رب الدين أن آتوا بلادكم حقها عليكم وافنوا فى خدمة الجمعية التى ولدتكم والتى عليكم اعتمادها فى تحقيق الآمال . ويعجبنا أن

الجريدة فى ١٥ من ابريل سنة ١٩١٤ العدد ٢١٥٩

يكون للناس على خدمة الأمة من الدالة ما يبيح لهم المداخلة فى شئونهم التى هى أشبه بالشئون الخاصة منها بالأعمال العمومية . اللهم لك الحمد والمنة على أن جعلتنا نسمع بآذاننا ونرى بأعيننا أن يقف الرأى العام لعبد العزيز بك موقف الذى يعتقد أن هذا الرجل الحر ليس له التصرف فى نفسه وملكاته ، بل هى وقف على خدمة الأمة فيما تشاء الأمة . غبطة تسيل لها الدموع الباردة فرحاً بأن زمن الهدم قد تولى — لا رده الله — وقد جاء بدله زمان بناء الرجال .

ليست المسألة فى ذاتها من المسائل السياسية الكبرى ولا من العقد الاجتماعية حتى كنت أتوقع أن تردنا من كل ناحية كتب الاستفهام عما تم فيها ، بل كتب الاعتراض علينا فى أننا لم نتبين رأينا فى المسألة كما نصدع به فى كل مسألة سواها . ليست المسألة كذلك ولكنها بسيطة فى حد ذاتها لم يعقدها إلا مركز الأستاذ عبد العزيز وثقة الأمة فى نائبها المحترم . طلبت إليه الحكومة أن يقبل القضاء فى محكمة الاستئناف و إنى شاهد رؤية وسماع على أن الحكومة لم يكن لها فى ذلك إلا قصد حسن وخدمة للقضاء ، أشهد بذلك . ولكنى أشهد معه بأننا فى الجمعية التشريعية فى غاية الحاجة إلى عبد العزيز بك وزملائه كبار العقول أشداء القلوب الذين يفرطون فى كل شىء إلا فى حق الأمة مهما صغر قدره وقلت قيمته . وعلى هذا الاعتبار جرى الرأى العام فى تقدير المسألة حتى قال لى يوماً كبير الخريين لمناسبة هذه المسألة ، تلك جناية على الجمعية تبوء أنت بشطر من المسئولية عليها !

وإذا كان هذا هو رأى سعد باشا ، فما عسى أن يكون رأى الباقين وماذا عساك تسأل عما ورد علينا من الاحتجاجات من قبل الشبيبة المتعلمة فى القاهرة ومن أعماق القرى والكفور .

إن عبد العزيز بك بتواضعه المشهور ، لعله لم يقدر ضرورة بقائه فى الجمعية بالقياس الذى قدره به جميع أعضائها والرأى العام . إنه رجل قانون طلب إليه خدمة القانون بمحكمة الاستئناف ، فكان حاله كالجندى طلب منه أن يخدم سلاحه محل جندى آخر فى ميدان الجهاد . فما يأخذه زهو الشهرة عن الخدمة الهادئة بين جدران قاعات الجلسات ولا يظنه عاملا لاقامة الحق ، أقل منه شرفاً حين يعمل لتأييد الحق والعدل بصورة أخرى فى الجمعية التشريعية . وأنا ضمين بأن هذا الرجل العالم لم تتجل أمامه تلك الخيالات اللماعة حين يظفر بالوزارة أو حين يسمع صوته الصريح لتحقيق ما يراه لمصلحة البلاد . شغل بشغل وخدمة للحق هنا وهناك. خدمة للأمة فى الحالين . فما يكون من التفضيل فى نظره إلا اعتبارات شخصية . وليس لديه من طمع إلا العفاف بالكفاف . فلا مفضل إلا ما يتفق مع مزاجه ويتمشى مع حال صحته . ولقد علم أصحابه أن طبيبه قال غير مرة بعدم استمراره فى الجمعية التشريعية وهو الدكتور طلعت بك . قالها وقوله حجة . فكان ذلك هو المرجح عند الأستاذ عبد العزيز وأخصائه . فلما رأى أن الأمة التى أنابته تحرص على نيابته ، وأصحابه فى المجلس يحرصون على الاحتفاظ به بينهم ، قال وصحتى أيضاً فداء .

فليعش هذا المثل الصالح ولتسلم له صحته وليبق له فداؤه . فإنه قد ضرب لنا مثلا فى التضحية كما ضرب لنا صاحب العطوفة شيخ ساستنا على الإطلاق مصطفى فهمى باشا، مثلا للتضحية والاحتفاظ بالكرامة والاستقلال. وما الأمة إلا أمثلة مضروبة من النبلاء ، واقتداء صالح من جانب الأبناء . بذلك تتم التقاليد . وعلى هذا تبنى قوة الشعوب .

فنحن نهنىء صديقنا بثقة الأمة وهى أكبر ما يتمنى الرجل من سعادات الحياة . ونهنىء الأمة بأن فيها من أبنائها من يصلحون فى أخلاقهم العامة وكفاءتهم ، ليكونوا طلائع الرقى المنتظر والفلاح القريب

٢

وقفت السيدة بهية هانم برهان على الجمعية الخيرية الإسلامية للتعليم سرايها الفسيحة الجميلة بشارع درب الجماميز لتكون معهداً علمياً .

وأجرت عليها من ريع وقفها ستمائة جنيه سنوياً خلافاً لريع البيوت والحوانيت الملحقة بالسراى مما يبلغ ريعه مائتى جنيه فى العام .

وقفت كل ذلك وقفاً نهائياً خالياً من الشروط العشرة . وقفت كل ذلك وقفاً منجزاً لا معلقاً على انقضاء الذرية ولا على أية حادثة مستقبلة . بل السراى والريع صارا من الآن للجمعية الخيرية .

الجريدة فى ٥ من يولية سنة ١٩١٤ العدد ٢٢٢٧

فما أجدر هذا العمل الصالح بأن يكون للأغنياء والموسرين القدوة الحسنى من وضع الشيء فى محله ، ودليلا على الإحسان فى الإحسان .

إنما الصدقات للفقراء والمساكين حق على الأغنياء والموسرين . كانت ولا تزال ، وكذلك تبقى جارية ما دامت فى الإنسان عاطفة الحنان الى الضعيف وإلى الفقير ، وما دام الشوق إلى منفعة الوطن يدفع الناس إلى التضحيات المالية وغير المالية . غير إن الصدقة تعظم بكبر قيمتها ومقدار الحاجة إليها وعلى نسبة ما تنتج من الخير العام للأمة . ومن هذا النوع مبرة الأميرة الكبيرة فاطمة هانم افندى والمحسنة الخالدة الذكر السيدة بهية هانم برهان فإنهما عرفتا حقيقة كيف يقرضان الله قرضاً حسناً ليضاعفه لهما أضعافاً مضاعفة ، وعلى أى نوع تقدمان لمصر أكبر ما يمكن من المنافع .

برهنت الجمعية الخيرية الإسلامية بالعمل المتواصل فى السكون والعزلة عن كل جلبة وضوضاء على أنها أمتن الجمعيات الخيرية نظاماً وأكبرهن ثقة وأوسعهن إدارة للتعليم . إنها أخذت على عاتقها تعليم الفقراء منذ قبضت الحكومة يدها عن تعليمهم وقبل أن يوجد فى البلاد جمعيات أخرى تهتم بأمر الفقير ، وقبل أن يكون لمجالس المديريات عناية بأمر التعليم . فى مدارس الجمعية الخيرية أكثر من ستة آلاف تلميذ يتعلمون بعضهم على نفقة أوليائهم ومن ليس له ولى قادر على تعليمه ، فوليه الجمعية تعلمه على نفقتها . ذلك عملها فى التعليم . وأما إعانة الفقراء ورعايتهم بالصدقة الخفية والرعاية الصامتة غير المتبوعة

بالمن فذلك يعرفه الذين حضرتهم معونة الجمعية فى وقت الضيق والذين جاءتهم رسلها تخلصهم من حيرة الموقف من حيث لا يحتسبون .

لا شك فى ان هذه الاعتبارات هى التى حركت عواطف السيدة بهية هانم الشريفة إلى توسيط الجمعية فى إيصال برها للفقراء والمساكين . فاختصتها بهذه الهبة العظمى التى لا نسمع بمثلها فى بلادنا ، وما أجمل أثر البر فى نفس فاعله وفى نفس المسدى إليه. ولو رأيت وفد الجمعية الخيرية الإسلامية يتقدمه دولة رئيسها الأمير الجليل حسين كامل باشا ووراءهم أبناء الجمعية الفقراء يحيون باسم الإنسانية تلك السيدة المحسنة فى شخص وكيلها الرجل النبيل أمين بك يحيى ، وينشد التلاميذ نشيدهم لتمجيد هذا العمل الصالح ، لوددت أن تكون لك كنوز الأرض تهبها لتعليم الفقراء ، ولانفعلت نفسك بأن فى الكرم بسالة تأخذ النفوس بأكبر مما تأخذها بسالة أبطال الحروب وان له جلالا فوق جلال القدرة والسلطان !

أجل ليس الكرم أو انفاق المال على حبه لتعليم اليتامى والمساكين ومواساة الفقراء الانزولا عن مقومات حفظ الذات وتضحية لا تقل فى شىء عن الضحايا التى يقدمها الأبطال لخير الإنسانية .

أحسنت أيتها السيدة المحسنة وليدم برك بالفقراء ، القدوة الحسنة للنساء وللرجال جميعا .

الآثار القديمة

على الرغم من الضعف الذى وقعت فيه مصرنا فمن المحقق أن المصرى تأخذه هزة الارتياح ويلعب به شعور العزة أمام عظمة المصريين القدماء، ويكون حظه من شعور الفخر أكبر من ذلك، لو أنه عالم بالحوادث المصرية المكتوبة على حيطان المعابد والمحاريب ووجهات القبور أو قارىء ترجمة تلك النقوش فى أشعار المسيو ماسبيرو ومار بيت ونافيل ومحاضرات كمال بك، إذ يعلم أن مصر كانت من العزة فى ذلك الزمن الغابر على قدر أن الملك كان له نحو اثنى عشر رجلا من الأمراء وغيرهم يقومون بأمر التشريفات، يصل إليه سفراء الممالك الأخرى راكعين ساجدين يرغمون أنوفهم بالتراب ويجأرون له بالدعاء يقطع أصواتهم خوف الملك وجلالته. وأن الملك لم يكن كل شىء فى مصر بل كان لأمراء الأمة ووزرائها فى كثير من الأحيان أثر عظيم فى الاصلاح وفى الحكم. وأن المصريين لم يكونوا — على ما يصفهم عامة الأجانب — مخلدين إلى السكينة كارهين السياحة والتنقل قانعين من الرزق بما تحت متناول اليد. بل كانوا أمة جد واستعمار تجرى فى استعمارها على أحدث الطرق الأوروبية الآن، إذ يخرج المرسلون من مصر إلى الأقطار المختلفة فى افريقية يجوسون خلالها حاملين إلى أهلها العطر ذا الرائحة النفاذة

الجريدة فى ٨ من ديسمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٧٤٤

والأقمشة الزاهية الألوان وغير ذلك مما يحمله الأوروبيون فى هذا العصر إلى سكان تلك الأقطار الشاسعة فى أفريقية . ولم تكن أغراض المصريين من فن السياحة قاصرة على الربح التجارى . بل كان أولئك السياح يكسبون بلادهم نفس الفوائد التى جنتها انكلترا من وراء الشركة التجارية الانكليزية فى بلاد الهند قبل فتحها، وسياحات سيسل رود ، وما كسبته فرنسا من بعثاتها فى الكونغو والسودان، إذ كان السياح المصريون يدعون الناس لاستماع أخبار مصر والمصريين ودينهم ولغتهم و يبينون عظمة ملكهم وثروة بلادهم حتى يصوروا مصر فى أذهان القبائل بصوره القوية القاهرة التى لا يعجزها تحقيق شىء مما تريد، فاذا رجع أولئك المرسلون إلى مصر وصفوا تلك البلاد وأفاضوا للحكومة بكل ما وصلوا إليه من المعلومات فتسير الجنود المصرية على أثر ذلك تفتح البلاد النائية التى صار فتحها بفضل معلومات السياح المصريين أمراً هيناً . ولقد كان المصريون أسمح الأمم فى استعمارهم لأنهم كانوا يسيرون فيه على مذهب اللامركزية يحفظون على الأمة المغلوبة دينها وعاداتها وشكل حكومتها و يتركونها حرة فى بلادها مقابل الاعتراف بالسيادة المصرية ، وكما أن مصر تحمى المستعمرة من الاعتداء الأجنبى ، كذلك كان يجب على المستعمرة المصرية أن تتعهد بدفع خراج سنوى وأن تنصر مصر فى حربها مع أية دولة أخرى

لا شك فى أن علم المصرى بهذه الحقائق المسطورة فى نحو القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد ، يخرج من نفسه القنوط من ارتقاء مصر و يجعل

آراء الذين يظنون بمصر عدم الاستعداد الطبيعى للاستقلال والسيادة من السخافة بمكان . فان ما جاز عليه الكون فى الماضى ، غير ممتنع عليه أن يكون . ولا شك فى أن المصريين حتى المتعلمين قليلو الاهتمام بالعلم بمصر القديمة إلى حد حرمنا لذة هذا الاغتباط بما كنا عليه . ولذة التشبث بالعمل إلى استعجال القدر ليذهب بهذا الحاضر التعيس ، وليعيد مصرنا إلى الماضى القديم .

أخبرنى أحد أصدقائى قال : سافرت فى الشتاء إلى الصعيد لزيارة الآثار القديمة والاستراحة من عناء العمل فلاحظ علىّ سائح المانى أن العجب يأخذ منّى مأخذاً كبيراً عند رؤية الآثار المصرية ، فسألنى إذا كانت هذه هى المرة الأولى لزيارتى إياها ؟ فقلت نعم ، فضحك وقهقه ، فسألته عما إذا كان زار هذه المعاهد من قبل ؟ قال زرتها سبعاً وعشرين مرة وهذه الثامنة والعشرون ، وعلىّ أن أجىء كل عام فى المستقبل أيضاً ، فضحكت منه أنا نوبتى ، وقلت له فهمت أنك كنت فى المرة الأولى مستطلعاً مستفيداً فأتممت فى المرة الثانية ما نقصك فى الأولى من الاستفادة ثم اعوزك الوقت لاتمام قصدك فجئت الثالثة وفيها مقنع لمستطلع وقضاء لبغية النفس من تكرير النظر للجميل . فما رأيت أعجب من تسويغى زيارة الآثار إلى هذا اليوم إلا اكثارك من رؤية الشيء الواحد ، واستزادتك من ذلك على غير جدوى . قال أؤكد لك اننى كلما زرت هذه الآثار شعرت بالرضى بل باللذة التى كنت أشعر بها فى كل

مرة سابقة وما رجعت مرة الا بفوائد جديدة لم أكن لاحصل عليها من قبل .

هذا حديث له أثر ثابت فى فهم هذا الاهتمام الذى يعرفه الألمان والفرنسيون والانجليز والأميركان فى زيارة آثار مصر واستنطاقها عن أخبار العالم الأول ، ليضيفوا بذلك صفحة أو صفحات إلى أسفار التاريخ القديم ولينتفعوا بذلك فى معرفة قوانين النشوء والارتقاء التى صارت عليه العلوم والفنون والصنائع من نحو سبعين قرناً ، وليبحثوا فى جوانب العالم عن الحلقات المفقودة من سلسلة الظواهر الاجتماعية والحركات البسيكولوجية التى تطورت بها الأمم حتى صارت إلى ما هى عليه الآن . فان الذى يجهل ماضى العالم حقيق به أن لا يصح حكمه على حاضره ولا على مستقبله . ومن لا يعرف تطورات الإنسان ، لا يستطيع أن يضع له قوانين السلوك فى الحياه .

كتب إلىّ أخيراً أحد أصدقائى نزيل الأقصر اليوم .

(أكتب إليك بعد أن زرت معظم الآثار التى خلفها لنا أجدادنا زيارة داخلنى منها الزهو وتضاعف بها حبى لمصر وطنى ، ولكن الحب لم يصف من شوائب الحزن ؛ لماذا لا تدرس فى مصر الإيجيبتولوجية كما تدرس بانجلترا)

هذا الكتاب أيضاً تدل عبارته على شعور كل مصرى متعلم يقف أمام الآثار المصرية لا يعرف منها إلا ما يعرفه العامى. يعرف من الأثر أنه عظيم متقن دال على آيـة الملك الذى يخبر عنه . هذا كل ما نعرف من آثار بلادنا .

لا أطلب أن يكون كل رجل منا يطاول شامبوليون فى دقة ملاحظته وقوة استكشافه. أو يبارى ماسپيرو فى إحاطته بالآثار المصرية. أو يكاثر كمال بك فى معلوماته الأثرية . ولكن المطلوب هو محاضرة مستمرة ودرس دائم فى الجامعة المصرية أو غيرها من دور العلم يسهل السبيل على أبناء مصر أن يعرفوا ماضيهم لا على الوجه العلمى الدقيق ، ولكن على الوجه الذى يعرفه السياح الأوربيون من آثار وتاريخ أجدادنا الأقدمين .

ليست أمتنا فى هذا الحاضر ذات وجود مستقل عن أمتنا الماضية ولكن الأمة كلٌ واحد غير منقسم وغير قابل للتجزئة . إنها أمة قد خلق جسمها الاجتماعى من يوم أن استقلت بهذا الوطن المحدود وكانت ذات نظام إجتماعى معروف فصارت تنتقل فى حياتها من الصحة إلى المرض ، ومن المرض إلى الصحة ؛ حتى صارت إلى ما هى عليه اليوم. فبعيد على المصريين الذين يريدون ارتقاء بلادهم أن ينجحوا فى تحقيق إرادتهم هذه إلا إذا عرفوا حقيقة أمتهم. وحقيقتها هى مجموع ماضيها وحاضرها . فليست معرفة الآثار القديمة فرعونية وعربية ، ولو إلماما ، قاصراً نفعها على اغتباط النفس برؤية الآثار الجميلة وتحصيل شعور العزة بذكرى ماضى مصر المجيد . بل هناك نفع أعم أثراً وهو الوصول من معرفة الماضى إلى معالجة الحال حتى يتبدل به مستقبل سعيد .

عسى أن يقع ما نقول من مشاعر الشبيبة موقع القبول فيقبلوا على وسائل العلم بمصر القديمة . وعسى أن يجيب علماء الآثار القديمة الفرعونية والعربية نداءنا فينفعوا الناس بمحاضراتهم وخير الناس أنفعهم للناس .

آثار الجمال وجمال الآثار

لا أظن أنه يوجد إنسان صحيح لا يشعر فى نفسه بتأثير الجمال أو لا تتحرك عواطفه حركة لذيذة أو مقبولة توجب الرضا برؤية الجميل . ولقد تختلف أذواق الأفراد والأمم اختلافاً قليلا فى تحديد جمال الأشخاص والأشياء تبعاً لتربية الخاصة النفسية التى تتعرف الجمال . فكلما كانت هذه الخاصة التى نسميها الذوق مصفاة من شوائب الخشونة بحكم التركيب الجسمانى والوارثة ودرس الفنون الجميلة ، كانت النفس أكثر إحساساً بالجميل وأدق حكما فى الجمال . ومهما كان رأى جماعة الزهاد فى الدنيا الذين لا يقيمون وزناً للذائذ الإنسانية ولا يحفلون بالصور الجميلة ، وجماعة الفانين فى كسب الأموال الذين يجدون ما عدا ذلك فى الحياة من سقط المتاع ، فان إجماع بنى آدم أصحاء الأجسام والعقول ، واقع على أن نفوسنا هى أيضاً كأبداننا محتاجة إلى الغذاء ، ومن أطيب غذائها الجمال ، فان مشاهدته حيث كان تلقى فى نفس الإنسان سكوناً يلطف آثار حركات المشاغل وينوع حال المشاعر فيحميها من الكلل والسآمة ويعيد قوتها سيرتها الأولى . فاذا كان الجمال على هذا القدر من تغذية الروح الإنسانية ، كان تعرفه بمرانة النفس على رؤيته حيثما كان ، من الأمور الضرورية للعيشة المدنية والتربية الإنسانية ، لا أنه — كما يزعمون —

الجريدة فى ١٢ من ديسمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٧٤٨

أمر كمالىّ صرف يتشبث به أهل البطالة وأتباع الهوى وخفاف الهموم :

زعم باطل وإغراق فى اعتبار الحياة حمأة آلام يتمرغ فيها الأحياء لايذوقون فيها من طعوم اللذة إلا تنقلا من ألم قديم إلى ألم جديد ! إذ ليس ذلك ما يشعر به عامتنا نحن الأحياء

نحن لا نعرف ماهية الجمال . ولا يهمنا الآن البحث عن ذلك ما دامت تشعر به أنفسنا من غير تعريف منطقى . يقولون إن الجمال هو عبارة عن مظهر أسرار الكمال فى هذا العالم المادى . أوانه مرآة حسن التأليف بين الصور والألوان . ويقولون غير ذلك .

ولست أظن أنه يهمنا كثيراً أن نسبح فيما وراء الطبيعة لنرجع بتعريف للجمال . وهو هو بعينه ذلك الذى نشعر به فى أنفسنا عند رؤية ما نسميه الجميل، سواء كان هذا الجميل مخلوقاً حياً أو جامداً أو فعلا من الأفعال التى تهز عواطفنا، أو معنى من المعانى التى تقع من النفس موقع الجميل بالحس . و إذا كنا حاصلين على معنى الجميل بالفعل داخل نفوسنا فخير من تلمس حدوده فيما وراء معلوماتنا، أن نستمتع بآثاره إذ الواقع أن الجمال معنى من المعانى القدسية التى لا تزال محجبة عن أبصارنا الكليلة ، مصونة عن التدهور فى هاوية أبحاثنا الوضعية ، رفيعة عن إدراكنا المحدود . ومع ذلك فإن آثاره مادية نراها بأعيننا فى الصور الحيه وفى التماثيل الجميلة ونسمعها فى أصوات الموسيقى ونشعر بها روحاً تفيض على مشاعرنا رضى بمشهد الأعمال العظيمة أو بسماع أخبارها — ذلك الأثر السعيد ، أثر الجمال ، هو الذى يجب علينا أن ننمّى مقداره فى

أنفسنا انحصل بها على أكثر ما نستطيع من العيشة الراضية .

إن تربية الحس الصادق الذى يتعرف الجمال ويتأثر منه ، ليست على مانظن خاضعة لقوانين معينة، لأنها هى تربية الذوق. والذوق شئ ليس فى الكتب. على أن نبوغ مصور التماثيل أو رسام الألواح أو صانع التحف أو الموسيق ليس نتيجة لازمة للعلم بأصول معينة بل هو إلهام من الله وفيض من الفيوض ، أو كما يقولون استعداد خاص قد تفسده قوانين العلم وينميه فى نفس العبقرى خروجه فى صناعته عن حدود المألوف .

أجل إن أرباب الفنون الجميلة فى كل زمان لم يقيدوا حريتهم عمداً بأقيسة فنية ، ولكنهم كانوا دائما خاضعين لانفعالاتهم الذاتية المتولدة عن عقائدهم ومشاعرهم ومشاعر أهل زمانهم وحاجات البيئات التى نشأوا فيها . ولذلك كانت آثار الفنون الجميلة فى كل عصر من العصور مؤتلفة غاية الائتلاف مع عقائد ذلك العصر ومشاعره وحاجاته واصطلاح الجمال فيه . فترى من السهل على كل ذى إلمام بالتاريخ والآثار أن يعرف الأثر الذى تقع عينه عليه، فى أى العصور صنع ، ومن أى البلاد هو . فان هذه الآثار الصامتة تحدّث الذى يعرف أن يسمعها . تحدثه بأهل زمانها صادقة ، كما قيل إن أصدق الكتب هو ما كتب بالحجارة .

ليس الحس الصادق الدقيق فى معرفة الجمال محلا لتربية معينة ذات أوضاع متفق عليها . كذلك لا يعرف التاريخ أن أمة من الأمم — مهما كانت آثار فنونها الجميلة ذات شخصية مستقلة عن غيرها — قطعت

النسب بين فنونها الجميلة وغيرها، ونبغت فيها. بل التاريخ يدل على ان الفنون الجميلة الفرعونية، إنما كان أصلها من أثيوبيا دخلت عند المصريين، فأخذت طابع عقائدهم الخاصة ومشاعرهم وحاجاتهم فتغيرت عن أصلها وصارت ذات شخصية مستقلة . فلما أخذها اليونان عنهم تغير شكلها تبعاً لعقائد اليونان ومشاعرهم أيضاً . فلما أخذها عنهم الرومان تغيرت تغييراً جديداً ، وإن كان هؤلاء لم يتفوقوا فيها على أساتذتهم اليونانيين. وهكذا أخذت الفنون الجميلة العربية من غيرها وكانت فى بدئها خليطاً ثم أفاضت عليها الروح العربية الإسلامية جمالها الخاص فأصبحت ذات شخصية مستقلة عن غيرها مميزة عما عداها ، سواء كان ذلك فى الأنغام الموسيقية أو فى تحف الآثار والصناعة الفنية والرسم والتماثيل . وإن كانت الصور والتماثيل قليلة فى الفنون الجميلة العربية ، إلا أن الذى وجد منها فى بعض الآثار كالحمراء بغرناطة والقصر فى اشبيلية وفى دار المستنصر وغيره من بعض الملوك والخلفاء ، قد دل أهل الفن على أن الرسم والتصوير فى الإسلام لهما طابع خاص .

على هـذا الاعتبار يمكننا أن نقول إن الحس الصادق الذى يتعرف الجمال فى الآثار لا يجوز أن يهمل أمره ويترك للصدفة الصرفة ، اعتماداً على أن الذوق ليس فى الكتب ، بل يجب أن تمرن النفس على رؤية الجميل من الصور والألواح والمصنوعات وسماع الجميل من الغناء حتى يرق شعورها وتحصل لها هذه اللذة التى تأتى من معرفة الجمال وتقديره ، فإنها لا تعدلها فى صفائها وعلو مكانتها لذة أخرى . لذة ضرورية للفرد نافعة للمجموع .

وأقرب ما يكون هذا المران العملى فى زيارة دار الآثار المصرية ودار الآثار العربية وزيارة العمارات الأثرية الفرعونية والعربية كالهيا كل والمعابد والمساجد القديمة . ثم زيارتها فى كل فرصة تمكن من ذلك .

يجد الانسان آثار الجمال فى الطبيعة فإنه إذا صفت نفسه واتسع أفق بصره ، وعلت مرتبة إدراكه، يرى الجمال فى الطبيعة حيثما أدار عينيه. يرى فى الرياض جمالا . وفى البحر الفسيح جمالا . بل يرى فى الطبيعة الجدوب والجبل الأقرع والصحراء الجرداء ، جمالا من نوع خاص . كما يرى الجمال فى بعض الإنسان و بعض الحيوان . غير أن للجمال فى نفوس الناس قيداً خاصاً يقيدون به معناه العام، وهو جمال الخلقة فى بنى الانسان على الخصوص. فإذا أقبلت على أحد الشبان تلقى عليه بغتة هذا السؤال : هل تحب الجمال ! تكيف هذا السؤال العام فى ذهنه بصورة امرأة حسناء وكان جوابه عنه مقيدا عنده بهذه الصورة ، إلا إذا ألفتّ ذهنه إلى معنى الجمال على إطلاقه . ذلك أمر مفهوم لا نعنى باستقصاء مصدره فى النفس. ولكننا يجب علينا أن نطاوع هذا الاصطلاح العام بعض الشىء فى تربية الذوق . ومن غير الممكن أن يوفق المرء إلى رؤية امرأة مثل (زهرة روفائيل) فى الجمال . بل قد يكون بين جسم المرأة الحية الجميلة و بين زوجها ، فوارق واضحة تنقص مقدار جمالها إلى ما دون المرأة العادية . وكذلك الرجل .أما ذلك التمثال الصامت، فإنه لا يلوح عليه من الآثار المعنوية إلا ما أراد المصور أن يجعله مثلا أعلى للمعانى التى تشف عنها أوضاع الجسم . على انه من كثير الوقوع أن المرء

لا يقصر النظر إلى الأجسام الحية المتحركة على مشاهدة الجمال المجرد ، بل قد يشارك معنى الجمال فى ذهن الرائى معان شتى تشوش على النفس استطلاع الجمال . وليس الأمر كذلك فى رؤية الألواح والتماثيل الجميلة . فإن النظر إليها يكون دائما خالياً عن كل ما يزحم معنى الجمال فى خيال الرائى : ولهذا الاعتبار نكاد نقول إن خير نموذج لتربية الذوق فى إدراك آثار الجمال هو استدامة النظر إلى جمال الآثار . وربما كان هذا النموذج هو النموذج الذى اتخذه الناس من قبل عند التشبث بتعلم الفنون الجميلة . لأنه لو كانت الطبيعة كفيلة بتقديم نماذج الجمال لاكتفت كل أمة بما لديها من النماذج الطبيعية من غير أن تستعير نماذج الفنون الجميلة من غيرها كما ذكرنا . لا شك فى أن الأمة الأولى أخذت نماذجها عن الطبيعة ، ولكن من خلفها من الأمم قد رأى الأخذ عنها أقرب من الأخذ عن نماذج الطبيعة . فإذا كان شباننا المتعلمون يجعلون من بعض همهم زيارة دور الآثار واستقصاء ترقى التصوير والصناعة الفنية فيها من عصر إلى عصر ، واعتادوا على ذلك حصلوا لذة لا يحصلها الذين يصرفون وقت الفراغ فى غير لذة بريئة ، بل فى سكون وسآمة ، واستفاد منهم المستعد فى صحة حكمه عن الأشياء . وزاد علمه بمصر وحبه لها وتقديره تقديراً صحيحاً مَجْدَها فى المدنيتين الفرعونية والعربية ، واحترم قومه ونفسه بالتبع . إذ الواقع يشهد أننا لا نعلم من قيمة وطننا ومجده مايعلمه السائحون . فإذا نحن تتبعنا آثار الجمال وعنينا بجمال الآثار ، حصلنا على بزور جديدة تنفعنا فى تمصير المدنيــة الغربية الحالية لأن أذواقنا تكون بعدئذ خليطا

مما تعلمناه من المبادئ الغربية وما كسبته مشاعرنا من التربية الغربية ، ومن ذوق مصرى ونزعات مصرية مصدرها مشاعر جنسنا الوراثية مضافاً إليها المشاعر المصرية التى تتكيف فى نفوسنا تكيفا مصريا حقيقا بالإيغال فى تعرف الآثار المصرية فرعونية وعربية .

لا شك فى أن آثارنا جميلة ورؤيتها تبعث فى النفس الرضى الذى يحصل برؤية الجميل . وخير الفوائد ما وجد منه المستفيد رضى ولذة . فلا يغلو الذى يقول إن الوقت الضائع هو ذلك الوقت الذى يصرفه أبناؤنا وبناتنا المتروضون فى غير مواضع الآثار .

لئن قام عذر علمائنا الأثريين فى أنهم لا يظهرون حبهم لنشر معلوماتهم الأثرية بالمحاضرات ، فما هو عذر الشبان فى هجر دور الآثار التى إن لم يجدوا من يعلمهم فيها ، ويوضح لهم جمالها ، ولم يستطيعوا أن يستفيدوا مما كتبه العلماء من وصفها وسنها ، فلا أقل من أن يدركوا جمالها ويحصلوا لذة رؤية الجميل . إنه لا تتم وطنية المرء إلا إذا عرف أمته قديمها وحديثها ، فان من جهل قديمها فهو مدع فى حبها ، لأن من جهل شيئاً عاداه .

ربيع الحياة

رأيت صباح اليوم أزهار الربيع على أكمل ما تكون ، إما فى أكمامها وآثار الصحة بادية عليها ، وإما زاهية قد مزقت أكمامها وأسفرت من حجابها بين بين ، لا هن سوافر خالعات العذار ، ولا هن متخذات ستوراً من الأكمام والأفنان . أسفرن فكلهن قرة للعين ولذة للشم ومبعث لحركات العواطف . لا أعرف عن طريق اليقين الوجه فى جمال هذه الزهور ، ولكنها فى الواقع جميلة . كذلك لا أعرف الصلة الخفية بين رؤية الأزهار وشمها ، وبين آيات الحب . جلت حكمة الله أن تتناولها عقولنا . ولكن الاستقراء دل على ان هذا النوع الانسانى منذ نشأ إلى اليوم ، يتعشق الزهر ولا يطيب له مجلس لهو إلا إذا كان للزهر فيه المقام الأول منثوراً ومنظوماً ، صحباً أو أشتاتاً . بل كلنا يود أن يكون له بستان فيه زهر ومن لم يجد ، هرع وقت فراغه إلى الحدائق العمومية . ومن لم يجد من الفلاحين أعجبه كثيراً أن يقيم وقت أنسه على قرب من زهر الفول . ومن لم يجد اتخذ له صورة بستان أو خيال بستان من الزهر فى آنية الفخار يضع فيها القرنفل والورد فى شبابيك داره . بل أصبح من القضايا البديهية أن الدلالة الوضعية على رقى أمة عنايتها بالزهر واستمتاعها به . وما هذا الاستقراء التام إلا جاعل نسباً ثابتاً بين الزهر وبين الأنس ومسارح العواطف

الجريدة فى ١٥ من ابريل سنة ١٩١٣ العدد ١٨٥٣

وحركات القلوب . لقد يسمح التعليل المنطق فى موضوع كهذا خفيف بطبعه لا يحتمل ثقل المنطق ورصانة التدليل . ولكنى أستأذن القارىء أن أستدل بهذا الاستقراء على أن الزهر من دواعى التقريب بين القلوب و بين عوامل الائتلاف بين الجنسين . وقد كان دائما مفتاحاً تستفتح به هدايا الوداد . بل اتخذت ألوانه المتنوعة وأنواعه المتعددة علامات على المشاعر المختلفة التى لها علاقة بذلك المعنى المعروف بآثاره المجهول بكنهه ، وهو الحب .

و إذا كان الزهر من دواعى الحب ، وكان الحب داعية حفظ النوع ، وكان الربيع خير الفصول فى وفرة زهره وجماله، فهل يستطاع الأمل بأن هذا الربيع يدعو الغلاة المماطلين من أبنائنا و بناتنا إلى فك (الاعتصاب) الذى لزمهم أو لزموه هذه السنين الأخيرة عن أكبر واجب حيوى ! فينزل كل منهم عن المثل الأعلى فى خياله إلى ما دونه من الأمثلة . ولا يتشدد فى التمسك بالاعتبارات الإضافية كفقر الزوج أو مركز أبيها فى الحكومة ..الخ وأن يتساهلوا بعض الشىء ولو فى بعض الشروط المعقولة عندهم غير المقبولة عندنا نحن الآباء ، لا بحجة العقل ولا الدين ، ولكن بحكم العادة الطويلة . هل يستطاع الأمل بأن هؤلاء المماطلين المتعصبين يخففون عنا كابوس الخوف من قلة النسل فى الفرقة المتعلمة من الطبقة الوسطى ؟ إنهم لو ذاقوا تلك السعادة الزوجية وشملهم سلام العيشة العائلية وشعروا بلذة عواطف الأبوة ، لما احتاجوا إلى إلحافنا فى المسألة ، ولندموا على ما ضيعوا من ربيع الحياة .

جنى القطن

لا أجمل من العمل إلا جنى ثمراته، وما أسعد صباح الجنائين ! يتنادون فيجتمعون . و يتفقد بعضهم بعضاً ثم يسيرون . يمشون فى طلعة الشمس جماعات جماعات مستبشرين رجالا ونساء فتيانا وفتيات صبيانا وصبيات، يأخذون معهم مواشيهم تأكل تحت أعينهم من حشيش الأرض أو من خف الذرة المجاورة لمزرعة القطن، تتبعهم كلابهم أيضاً، فتكاد العائلة لاتخلف فى البيت إلا من تصلح لهم الطعام . ترى الأطفال وقد خفت من الفرح جسومهم الصغيرة فهى تنط من هنا إلى هنا، وتثب وتلتفت، يضحكون من لاشئ، يغنون طربين بأنهم تركوا المألوف من تفرق العائلة بكرة النهار كل إلى عمله بعيداً عن الآخر، كبار العائلة إلى المزارع، ونساؤها إلى الأعمال المنزلية، وصغارها بعضهم يذهب الى المكتب و بعضهم يسرح بالماشية . تنسخ هذه العادة يوم جنى القطن، إذ يذهب جميع أفراد العائلة بجملتهم إلى المزرعة، يتسابقون فى الجنى، و يتبارى فتياتهم فى الغناء ، وتنافسهم فى إجادة النكت الجميلة يضحك منها الجميع .

إن هذا المنظر الجميل لأولئك الرفقات المستبشرة، لاتدع محلا للشك فى أن جنى القطن هو موسم سعادة الزارعين .

الجريدة فى ٢ من اكتوبر سنة ١٩١٣ العدد ١٩٩٤

يمشى رب العائلة إلى الغيط أمام عائلته وقلبه مملوء بالرجاء . يرجو أن تكون ثمرة عمله السنوى وفيرة يؤدى المال ويدفع الإيجار ويبقى له من ثمن القطن مايفى بنفقاته . وكان هذا السرور الداخلى يطبع على وجهه سيما الرضا ويفيض على أخلاقه سعة الصدر . ينظر إلى أهله وذويه نظرات المودة حتى إذا أراد حثهم على العمل لاتكون صيغة الزجر إلا صيغة تلطف وتشجيع ، إذ يدعو لهم بالعافية فيقول (عوافى) .

شغل المزارع كله صامت أو قليل الجلبة بطىء الحركات له مسحة من الوقار وعليه أمارات الصبر وسكون الحزن، إلا جنى القطن، فإنه كثير الحركة متوالى الجيئات والروحات خفيف الحمل يتخلله طيب الغناء وعذوبة اللحن حيناً، وحديث الجنائين بعضهم لبعض حيناً آخر . يتجلى فيه الفرح بالجماعة. وإن للجماعة لروحا عامة تفيض على أفرادها حتى إذا مررت بهم من على الطريق ، وليس لك فى القطن فتيل ولا من ثمنه مليم أفاضوا عليك من فرحهم فشاركتهم فيما هم فيه . ولست أعرف منظراً اروح للنفس من منظر الراضين .

إن لم يكن القطن جميلا عند أهل المعرفة بالجمال ، فإن جنيه من أجمل مايكون . ومع ذلك فهو جميل . انه نافع وكثيراً ما يكون الشعور بالجمال غير خالص من دواعى المنفعة . كثيراً ما يكون الجميل هو النافع، بل ذهب بعض المتعرفين جمال الإشياء إلى أن أصله فى النفس المنفعة لا غيرها . على أن مزرعة القطن المحصورة فى ذلك الإطار من التيل [1] القائم عليها قيام السياج

(١) من عادة الفلاحين أن يخوطوا مزارع القطن بنبات التيل يتخذون منه حبالا (الناشر)

على البستان ، ليست إلا لوحة من ألوان الطبيعة الجميلة عند القلوب التى تقدر الجمال . لو أن الجمال معروف الأوضاع ومحل للدليل والبرهان ، لقلت كيف لايكون جميلا مجموع تلك الشجيرات مشتبكات على مسافات متساوية سيقانها حمر وأوراقها صفر وخضر ومُدْهَامَّة وعلى غصونها المترنحة ، أبراج القطن الأبيض . . . الخ

ولكن الجميل هو ما ترضى به النفس وتحبه كذلك . ان شئته روضاً فهو كذلك ، و إن شئته غلة فهو كل ثروة البلاد ، جنيه الظاهرة الاقتصادية الكبرى فى مصر ، و إلى حاصلها تنسب الشدة والرخاء طول العام . يظن الثقاة من المزارعين أن حاصل هذا العام لايصل بحال سبعة الملايين وقد كان فى العام الماضى وشيك الثمانية . لهذا التقدير ولتقديرات أمريكا ، يقولون إن القطن سيزيد ثمنه زيادة تعوض بعض الخسارة فى كميته . ولست أظن هذه التقديرات العابثة محجبة عن أدمغة أرباب المزارع . إنهم يدركونها وهم وسط أولادهم فى الجنى فتثقل رؤوسهم ، فيطرقون بعض الشئ . وكأنى برب المزرعة استخفت من حواليه أصوات ذويه الجنائين حين يرهقهم حر الشمس فى الظهيرة يكثر تفكيره فى تقدير حاصل زراعته وتتمثل أمامه شخوص الدائنين الملحفين فى الطلب فيطرق ، ولكنه لايلبث أن تحجب الشمس غمامة فيمسح الأولاد جباههم باردانهم ، و يعودون إلى غنائهم فينبهوه و يشاطرهم ماهم فيه من الغبطة ، وكأنى به يقول وهو يطرد عنه هم الوفاء : خلنا نأخذ بطرف من سرور الحياة ولهوها فسرورها قليل وندع الهم إلى ساعة الوزن وتصفية الحساب .

أول العام

بالناس فى الجديد من الزمان رغبة و إليه شوق . نفرح بالعام الجديد والشهر الجديد . كأن حاضرنا يثقل علينا حمله ، نرغب فى الفرار منه إلى غيره . أو لأن النفوس شيقة إلى معرفة ما يكنه المستقبل فى الصحائف المطوية وراء حجب الغيب . فى ظرف الزمان نستبطىء الحاضر و نستعجل المستقبل ، والذى نرجو أن يحقق فيها كل امرىء آماله وأمانيه . وما أول العام إلا باب هذه المسافة الزمنية . لذلك كان استقباله عندنا عيداً من الأعياد .

يا عجباً من الإنسان ! هو يحب الحياة و يفرح بانقضاء الزمن وما هو إلا انقضاء الحياة . ولقد جرب ثم جرب أن المستقبل إن حقق له لذة منتظرة ، فقد رماه أيضاً بألم جديد . و إن أسدى نعمة فقد اتبعها بنقمة ، و إن جاء بحسنة فما يلبث أن يصيب بالسيئة . وما هذا المستقبل المنتظر إلا أشبه ما يكون بالماضى بل هو شر منه لأنه زمن الهرم وموطن الضعف والمانع من قدرة التنعم بنعيم الحياة . من الصعب أن ندرك ذلك السر الخفى الذى يجعل المرء يستعجل المستقبل فيما يتعلق بحياته الفردية و يشتغل به إلى حد الانصراف عن كل الحاضر . ما دام المستقبل هو فناء الحياة . نعم تنقضى حياة الفرد وهو يرجو من المستقبل أن يعوض عليه ما فاته فهو لا يفتأ يرجو ، والدهر لا يفتأ يخيب ذلك الرجاء .

الجريدة فى ٢٩ من نوفبر سنة ١٩١٣ العدد ٢٠٤٠

ولـكن الإنسان إذا قصرت حياته عن تحقيق آماله الشخصية فإن الأمم طويلة الأعمار إذا أدركها الهرم لا مانع يمنعها من استعادة شبابها وقوتها. فلا جرم أن ننتظر من المستقبل أن تتحقق فيه آمالنا العامة وأطماعنا القومية ويجنى شعبنا ثمار ما غرسه آباؤنا وما يغرس الجيل الحاضر من المبادىء القومية . ونستعجل الأعوام المستقبلة تجىء بالسعادة التى يرجوها المصريون .

أهلا بأول العام مهما نشر لنا عامه من مطوى الحوادث ، فأنه يجدد لنا ذكرى جده الأول يوم هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . ذلك اليوم الذى سن فيه النبى للناس كافة أن الحق أحق أن يتبع ، وأن المرء يجب عليه أن يضحى فى الدفاع عن الحق ما استطاع من الضحايا ولو كلفه هجرة وطنه وأهله ، والسلب مما هو فيه من نعمة الطمأنينة والراحة . بل لو كلفه تعريض حياته إلى أشد الأخطار . ذلك اليوم الذى قلب وجه العالم و بدل الشرك توحيداً والضلال هدى والظلام نوراً والظلم عدلا وتفاضل الناس بالإنساب والأموال مساواة . يوم الإخاء والمساواة يوم الديمقراطية الصحيحة . يوم تقرير سلطة الأمة فى شئونها الدنيوية . والدين لله الواحد القهار .

لكل قوم عيد . وهذا عيد الأبرار الذين يقولون بالإخاء والمساواة ويجرون وراء تحقيق سلطة الأمة ويسيرون على المبادىء القويمة التى جاء بها الدين الحنيف لخير الأفراد والشعوب .

الرجل السعيد

لم تك بى حاجة إلى مصباح ديوجين لا بحث عن الرجل الطيب ، ولكن بنا حاجة إلى نور الأرض والسماء لنتعرف الرجل السعيد .

إذا كانت السعادة فى أفراد الأمم البادية قليلى الحاجة والهموم ، يلمع نورها فى عيونهم الجيلة السليمة من أذى الإجهاد ، و يترقرق ماؤها فى جباههم الواضحة ، وتنم خفة حركاتهم عن قلوب خفيفة من أوزار الحياة ونفوس طابت عن كثير من عرض الدنيا وشره المدنية ، رضيت من مزايا الحياة بالحرية . ونعم الحال تتقلب النفس على هواها فى مراتب العزة وتأخـذ من العيش بنصيب صفا من كدر الأحقاد وغصص المزاحمة المستمرة وخلا من الهموم العامة لأهل الحاضرة ، إلا مما كان من غارة يقتضيها العيش أو لقاء عدو للدفاع عن الوطن .

وكلاهما قد يزول همه بانقضائه ، لا كأهل المدينة سلمهم حرب وحربهم حرب . فهم فى السلم من خوف الحرب فى حرب شعواء ، أدهى وأمر من الرمى والطعن والضرب . وهم من خوف الفقر ومن المزاحمة على حاجات الحياة وكمالياتها فى حرب . وهم من ثروتهم العلمية والفنية والمالية فى فتنة مستطيرة الشرر ، تقلق الملىء والخالى، وتكد ضمير العظيم والحقير على السواء .

الجريدة فى ١١ من يناير سنة ١٩١٤ العدد ٢٠٧٧

إذا كانت السعادة فى أفراد الأمم البادية ، فاخلق بها أن لا تكون فى مدنيتنا . بعيد على السعادة ، وهى أمنية الحى ، رضاء النفس وطمأنينة القلب ونور العين ، أن نلقاها فى حمأة الشهوات الذى تزحف فيه النفوس وتتخبط فى ملاطمه القوى والملكات . إلا الذين أخلصوا قلوبهم وتعرفوا الحياة بالعقل وبالمثل ، فعرفوها عن قرب . يضربون فيها لأشخاصهم هونا ويعملون لسعادة غيرهم جماً ، ويكبر فى صدورهم حب الإنسانية وتنمو فى نفوسهم طبائع الخير فتميت ماعداها من الميول . رضى الله عنهم ورضوا عن أنفسهم ، وحققوا سعادتهم فى هذه الدار . أولئك هم السعداء .

أين الرجل السعيد الراضى بحاله فى هذه الحياة الدنيا ؟ وقلب المرء بما أودع من الهموم الحقيرة والجليلة ، لا يهدأ روعه ولا يسكن هياجه إلا إذا أصاب أغراضه ووصل آماله و بلغ أمانيه وما هو ببالغها ؛ وكلما انقضى منها سبب جاءه سبب جديد . إنه لانهاية لأغراضه ونهاية حياته واقعة لاشبهة فيها و إن حاول هو أن يؤجلّ هذا الواقع . و إنه على ذلك ينفطر قلبه حسرات على مايفوته من مطلوب وتذوب نفسه شعاعا على فقد محبوب . إن أصابه الخير يزهيه فيركب متن الكبرياء وهو بركوبها شقى . و إن أصابه مايظنه الشر يتبرم بعدل الوجود و يتغير للجمعية و يركن إلى الخمول أو يجرع كأس الذلة وهو بذلك أيضاً شقى . ولو أنصف الإنسان لاعتقد أنه لاقبل له بتغيير مجرى الحوادث . ولا طاقة له على حسن تقدير الخير والشر . (وعسى أن تكرهوا

شيئاً وهو خير لـكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لـكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

لو أنصف الإنسان لما جعل له من غرض فى الحياة إلا القيام بما يعتقده الواجب ، يخلص له النية والعمل جميعاً . يعمل ثم يعمل، فإذا جاءت النتيجة على وفاق مايقدر فليرض وليقنع من الرضا وليرضى نفسه على أن لايخدعها النجاح كيلا تجمح وتتعسرعليه فيضيع من يده زمامها . و إن أكدى العمل وجاء بنتيجة عكسية، فليرض أيضاً وليرضى نفسه على أن لايخدعها الفشل، فتمل العمل وتقصر فى أداء الواجب .

ألا إن السعيد هو من يعرف أن يرضى بحاله . فليست السعادة هى الثروة ولا الاستمتاع بها . وليست هى الجاه ولا آثاره . وليست هى الحب ولا لذاته . وليست هى العلم ولا نوره ولا منافعه . وليست هى الجهل ولا جموده وجرائره . وليست هى النباهة ولا كبرياؤها وليست هى الخمول ولا انزواؤه وتعطيله وليست هى الحكم، ولا فى نظام الإستبداد ولا قدرته وليست هى الجمال ولا شفاعته . وليست هى الظرف ولا خفته. و بعيد أن تكون هى العقل وحسابه ، ان لم تكن هى الخيال وأوهامه . ليست السعادة شيئا من ذلك ولا هى كل ذلك بجمعه . بل السعادة ظن السعيد أنه سعيد .

جلت قدرة الله : إن لم نتعرف السعادة بين البؤساء فنحن لا نعرف لها أثراً بين الأغنياء . و إذا وجدناها من حظ الأغبياء فهيهات أن نجد فيها نصيباً كبيراً للأذكياء ! ! نؤكد أن السعادة هى أحساس الموجودات وليست من

الإعدام. ولكنها لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم. لا يلقاها إلا من كان لا يعرف الهم. وهذا الصنف من الناس لا تنفعنا سعادته، كما لا يعز علينا شقاؤه. ولا يلقاها إلا رجل ذكى القلب راضى نفسه على الرضا، فرضيت غير كارهة. عرفت الحياة فلم تبالغ فى تقديرها وعلمت قيمة الواجب وقدرت على القيام به حق قيام. وأخذت الحوادث فاستقبلتها كما هى لا كما يجب أن تكون. ذلك هو السعيد الذى نرجو أن تكثر فى العالم صورته، حتى لا تكون السعادة بالعلة أو بالجمود وعدم المبالاة، بل لتكون السعادة فى العمل لخير الإنسان وبالعمل لرقى الإنسان.

الرجل الصريح

إذا كنت تقابل الناس بأكثر من المعروف هشاً و بشاً وتلطفا وتسوم طبعك المزح الذى ليس من خلقك ليقول عنك الناس ما ألطفه وما أرق حاشيته ، فإنك بذلك توشك أن تعد فى ضمن المخادعين ، وما أنت بالرجل الصريح .

إذا كتبت أو خطبت فأخفيت ما تعتقد لتظهر ما لا تعتقد مجاراة لرأى الناس ، فما أبعدك عما يشخص الرجل الصريح .

إن الخداع درع خلقه تكاد لا تستر الخادع إلا ما دام الناس عمياً . فإن أبصروا لا يلبث ستر الخداع أن يتمزق اربا و يتلاشى هباء عن الكذب عريان خجلا لا يستطيع بعدها أن يكون مطرحا للثقة ولا محلا للمعاملات .

كأنى بالخداع لا يركب نفساً إلا نزلت عن شخصيتها وضلت فى تقدير ماهية المنفعة الشخصية وجبنت عن احتمال المسئولية عن أعمالها فضعفت أن تبرز فى ميدان المعاملة الإنسانية إلا مقنعة بالزور مشتملة بثوب كثوب الثعبان من النفاق . فلولا رحمة من الله وعقل هاد إلى الصواب وتسامح من طيبات النفوس لهلك المخادع لساعته ضعفاً عن الحياة وأسفاً على ما فرط فى حق نفسه وفى حق الصراحة الإنسانية .

الجريدة فى ١٨ من فبراير سنة ١٩١٤ العدد ٢١١١

الصراحة ضمير حى وعزة تحمى من المداجاة وشجاعة تكفى لاحتمال مسئولية ما ينكره الناس على الرجل الصريح .

ذكرت جريدة الأهرام أحد نوابنا فقالت : (.... حلو الدفاع عذب العبارة شديد العارضة إلا أن له ضميراً حياً لا يخالفه ....) . ذلك هو المثل الصريح للرجل الصريح .

كثرة الصرحاء فى الأمة إمارة على عزتها ، فمتى تكثر فينا صورة الرجل الصريح ؟

زهر الربيع

ليس كل الحياة شقاء للسعى إلى مال ينفق أو يدخر وإلى مباراة فى رفعة المناصب . بل الحياة أيضاً استمتاع بجمال الطبيعة . فكرة خفيفة الوزن تافهة القيمة عند أهل الوقار . أولئك يرون ركض الدابة ينافى الوقار . ولعب الكرة يذهب بالوقار . ومعظم أسباب التربية البدنية لا يتفق على ما يجب للرجال من أطراق طويل وسكون عميق وجمود على المأثور عن السلف الصالح القريب. كأن الأمة يجب أن تكون كلها من أهل الرياضة والكشف، يضحون قوة البدن لصفاء الروح حتى تنزع بجهتها القدسية عن هذا العالم السفلى إلى الملكوت الأعلى . ولو أنهم أرادونا على احتباس النفس عن لهو الدنيا ولعبها إلى العمل للآخرة ونعيمها ، لكان فيما يهدون إليه من التقليد مغنم . ولكن الحال قد تبدلت إلى صرف النظر عن جمال الطبيعة ونعيم الحياة الانسانية إلى أخس أطراف هذه الحياة : الحرص على الخدمة فى الحكومة والحرص على فقد الحرية فى كل شىء حتى فى اللذات البريئة ، حتى فى الاشتغال بتربية ملكة الجمال ، حتى فى العناية بغرس الأشجار وتوليد الأزهار. الحرص على فقد الصراحة فى كل شىء حتى فى الأعمال الشخصية . تقف عن الظهور بتعرف الجمال حيث كان . وعن إعلان حب الجمال . وعن

الجريدة فى ١١ من ابريل سنة ١٩١٤ العدد ٢١٥٥

الظهور بحب الأزهار واستقبال الربيع بالتحية والارتياح . بديل ذلك استغراق فى اللذات المخجلة بشرط أن تكون خفية حتى لا تجرح قدسية الوقار ! ربِّ ! كل ما خلقت تابع لقانون التطور حتى المعانى والأفكار . فالذين تجرَّدوا من مزايا السلف الصالح فى علم يفيد وجد ممتع وسيرة طابت ظواهرها و بواطنها قد اكتفوا من أسلافهم بتقليد شىء واحد لم يقدروا إلا عليه وهو صورة ظاهرة من الإطراق لا فى التفكير والسكون ، بل هو مظهر يقتضيه الوقار ؟ فإذا تحركت النفس الإنسانية فى هذا الجسم الوقور فإنما حركتها إلى الشهوات السافلة المنحطة دون الشهوات العالية من اغتباط حقيق بجمال الطبيعة ، وتقدير صحيح لما أودع فى الفنون من كنوز الجمال . ذلك جيل ذهب بأهله . ولنا جيل ناهض يجب أن يؤلف بين علمه و بين نزعات نفسه . و يضيف إلى تثقيف عقله تهذيب مشاعره . و يطرح جانباً كثيراً مما ورثناه من ماضينا القريب ، فيعمل للمزاحمة العالمية ليكسب قسطه تحت السماء من مال يسد الحاجة وقوة تحمى الوطن ولذة بجمال الطبيعة تعين على فهم الحياة . فيعنى بمظاهر الجمال كما يعنى بزراعة القطن ، لأن الحياة ليست شقاء خالصاً بل هى يومان : يوم للشقاء و يوم للنعيم ، و يأخذ بنصيب من الالتفات للظواهر الطبيعية كما يحرص على الاستفادة من الظواهر الاجتماعية والحوادث الاقتصادية .

ها نحن أولاء أمام الربيع . أزهاره تنسم أنفاسها . وتأخذ بأبصارنا ألوانها . وتحرك جدتها عواطف الحنان فى قلوبنا كأنها بعض أبنائنا إن

مرآها ورياها ينقلان نفوسنا من عالم الشقاء إلى عالم النعيم . ومن أرض الحقيقة الواقعة إلى سماء الخيال الجميل. لا أظن هذا الانتقال وهمياً لا وجود له . كلا إنه صحيح واقع فإننا نشعر بوجوده فى قلوبنا ونرى آثاره على وجوهنا . إن خيال اللذة البريئة موجود وأثره سعد ، ولعله هو نعيم الحياة . فأهلا ومرحباً بأزهار الربيع .

ليس جديداً علينا بنى الانسان أن نعلن مشاعر الاغتباط ونسدى عبارات الإعجاب إلى الربيع وجماله . فقد كان ذلك فى كل زمان موضوع وصف شعرائنا . والمحرك الأول لعواطف المحبة فى صدورنا . وكأن الزهر رسول المودة وهدية الحب بين الأنفس الحساسة التى بينها وبين الجمال نسب متين .

كنا ولا نزال نبتهل إلى الربيع وننسب بالطبيعة ؛ فهل لها أذن تسمع تغنينا بجمالها ؟ أم هى صماء صادرة عن قوانين أزلية سائرة إلى مصير مرسوم لا تلقى نظرة على سكانها المفتونين بزخرفها الفانين فى حبها. وهم فى الحقيقة ضحايا عدوانها . ليكن كل ذلك . ولكن ذلك غير مانع لنا من أن نستوفى قسطنا من الحياة على أكمل ما نستطيع . نبلو مرها ونطعم حلوها . ننسى آلامنا فيها بما يسحرنا من جمال أزهار الربيع .

علموا أبناءكم حب الجمال ، ونموا فى نفوسهم ملكته ، ليعلموا أن الحياة ليست جحيم الهموم ولكن فيها لمحات من النعيم. إن حب الجمال يرفع النفس إلى لذائذ أطهر طبعاً وأسعد أثراً وأبقى فى العواطف نتيجة من كل ما عداه من لذائذ الحياة. وإن أبسط موضوع لتعرف الجمال والمران به ، أزهار الربيع.

الصـداقة

حدثنى صديق ذكى القلب ينتفع بكل الحوادث و يعتبر بكل المشاهدات قال : ركبت الترام إلى جانب السواق فحضرتنى طائفة من الأفكار ترجع كلها إلى حال هذا العامل وما يعانى من سفر مستمر خلو مما نجد نحن فى أسفارنا من التعزية ببلوغ الغرض . وما يحمل من مسئولية كبيرة مستمرة إذ هو مسئول عن سلامة الراكبى ترامه، مسئول عن المصادمات، مسئول حتى عن الأطفال المعتسفين يمر أحدهم أمام الترام ليغتبط بخفته فى العـدو وليهزأ بسرعة الكهرباء ، أو يتصدى للتعلق به سائراً من على اليمين حيث يتاح له النزول من غير خطر أو على الشمال إذا زلقت رجله، فهو وشيك أن يلقى بين ترامين . قال حادثت السائق حيث لا خطر من محادثته وسألته ماذا يجد من عمـله وهل هو يذوق لذة المسئولية التى يحملها والخدمة التى يؤديها : فأجاب ببساطة خاصة بالأفندية من درجته ومستوى تربيته : إن عمله شاق ممل ، ولكنه يخفف عليه كثيرا هذا الملل أن يقابله سواق آخر من أصحـابه يتبادلان فى هذه الفرصة الضيقة عبارات التحية لا يتمانها حتى يبعد كلاهما بحيث لا يسمع صوت الآخر . تسلية ضئيلة ! ولكنها مع ذلك مثيرة فى النفس اكبار الصداقة و إنها من الشروط الأصلية للحياة .

الجريدة فى ٦ من يوليو سنة ١٩١٤ العدد ٢٢٢٨

لم ينفرد صاحبنا السواق بالمسئولية بل كلنا فى المسئولية سواق ترام يحتمل مسئولية عمله ونتائج أعمال غيره أيضا . وكلنا معذب لا بد له من تعزية تخفف عليه حمل الحياة . والظاهر أن أكثر التعزيات خيراً وأطولها عمراً وأطهرها طبيعة هى الصداقة .

يرد على الخاطر فى هـذا المقام معنى قلما فات امرء استعماله : (لا لا . كلنا أصدقاء) . يقولها الواحد لصديقه إذا عرض عليه الاشتراك فى عمل مالى أو نحو ذلك من الأعمال التى مغبتها عادة الاختلاف على المنافع وتبدل الصفاء كثيرا بين المتعاملين ! مهما قيلت هذه الجملة فى مقام الاعتذار ، ومهما ابتذل استعمالها فصار يتناول علاقات غير الأصدقاء فى الحقيقة ، إلا أنها مع ذلك لشيوعها فى الناس تعتبر من جانبهم اجماعا على أن الصداقة فوق كل المنافع وأغلى ثمناً من أن يشترى بها الرجل كائنا ما كان من الأعراض الانسانية .

ما هى حياتنا إن لم تكن فى الواقع مجموعة من المشاعر المختلفة . بها وحدها نحيا ومن أجل الجمع بينها والحصـول على لذتها نتعب وننصب وفيهـا نحيا ونموت ! وما أظن ما فى الانسان من قوى مادية وعقلية إلا خدماً لتشبيع مشاعره النفسية : ألا ترانا ننظر إلى ما فى الدنيا بنظارات تأخذ ألوانها من صفاء نفوسنا وكدورتها . فالمغتبط بما هو فيه يرى الحياة وردية — كما يقال — ولو كان فى فقر الأنبياء أو فى غيابات السجون ! أما الذى يظن أن تقطعت به أسباب الفوز ولازمته خيبة الرجاء فى مقاصده أو فى أصدقائه . أو من هو لأى سبب تكدرت مشاعره ، فلا يرى ما هو فيه من نعم الحياة

إلا جحيما مقيما . انها مشاعرنا النفسية هى التى عليها العمدة فى جعلنا سعداء أو أشقياء . فليس بعجيب على الانسان أن يجعل للصداقة وهى أظهر المشاعر الانسانية هذه القيمة و يفضل الشعور بها والاغتباط بلذتها على كل شىء .

يسرف الناس فى استعمال لفظ الصديق مقولا على الزملاء والمعارف بل ومعارف المعارف . وما أرادوا بذلك امتهان الصداقة وابتذال أمرها ، فانهم منذ طفولة الانسانية إلى الآن، ينشدون الخل الوفى و يقولون بامتناعه بوصف أنه المثال الأعلى للصديق . ولكنهم يريدون أن يشرفوا طبائع علاقاتهم بعضهم ببعض إذ يعطونها لون الصداقة أو لفظ الصداقة . ولوسئلت ما الصديق لما زدت على أنه ذلك الانسان بعينه الذى تشعر فى نفسك بالفرح عند لقائه والشوق للجلوس إليه والافاضة له بكل ما لديك ، تعطيه مفتاح عقلك وقلبك آمناً ليرى فيهما كل شىء . يوحشك بعده و يؤنسك قربه وتجد من نفسك باعثاً قويا وحاجة لا يسدها إلا لقاؤه .

ولقد نجد فى الأمثلة الصديقين يكون كلاهما للآخر على ما وصفنا ، فلا يقع بينهما، إلا أصبحا لا كالمعارف بل كالأعداء . وهذا صحيح مشاهد ولكنه لا يطعن على معنى الصداقة فى شىء . بل هو يدل على أن الصداقة كبقية المشاعر النفسية مختلفة الكم والبقاء باختلاف الاستعداد . فمن الناس من يحب إلى الشوق بل إلى الهيام بل إلى الموت . ومنهم من يحب حباً لا يتعدى المتعارف فى القدر ولا يتعدى أياماً أو أسابيع فى البقاء . ومهما كان من الصعب التفريق التام بين عاطفة الصداقة وعاطفة الحب تفريقاً منطقياً

ووضعياً ، إلا أننا مع ذلك نشعر فى نفوسنا بتخالف بين الإحساسين وتباين فى الكيف بين موضوعيهما . فالنفس التى لا يمكنها استعدادها إلا من السير فى الحياة على مقتضى المصادفة الصرفة ، تتنقل فى صداقتها كما تتنقل فى إذواق المودة . قل أن ننعم بهذه الصداقة وإن كان من الصعب علينا أن نظن أنه توجد نفس لم تذق لذة الصداقة قليلا أو كثيراً تبعاً لمبادىء التربية وفطرة الإستعداد .

ما أشمل الرضا للنفس تجلس إلى نفس صديقة مجلساً ليس للتكلف فى الأوضاع المادية ولا المشاعر المعنوية فيه أثر ! روحان اتفقتا فى المشاعر وتم بينهما التفاهم فى كثير من أمهات المبادىء العلمية والكليات العقلية . لذة يعرفها الذى يعرف لذة الأحلام ، فكثيراً ما تجرد النفس من ذاتها فى العزلة خيالا تفضى إليه بما فيها وتبدى له ما خفى فى طيات أعماقها من المقاصد ، وما رسب فيها من الآلام . فإذا وفقت إلى الصديق الموافق كانت هذه المفاجأة الحلمية اللذيذة اشهى متاعاً وأقوى لذة من لذة الهواجس الفردية ومسارح الأحلام .

وما الصداقة بقاصرة فى آثارها على هذه اللذة ، لذة الحديث العذب والبعد مسوقة عن عذاب الحياة اليومية واثقال التكلف فى أوضاع الأعمال . بل كثيراً ما كان صديقك مرآتك ترى فيها عيوبك وفضائلك جميعاً . بل طالما كانت الصداقة وتشيع الأصدقاء مصدراً للتفوق والنبوغ . نعت

الصداقة الروح بتخليصها من سآمة الوحدة وألم الوحشة ، ولكنها نفعت العلم والأدب أيضاً فى كثير من الأحيان .

إحساس تلك هى الحاجة إليه ، من حقه أن يتعهد أمره فى النفس لينمو فيها . فلا يغيرك لصديقك خطأ وقع فيه ، فما الكمال بمدرك فى هذا العالم . بل يجب أن تكون معاملة الصديقين مبنية على حسن الاعتقاد وقاعدة التسامح

سلطة الأمـــة

لا يزال عندنا كثير من الناس المسئولين عن مصر بحكم مراكزهم من العلم والمعرفة أو من الحياة والمال من إذا حادثته فى سياسة البلد تقبض وجهه وأعرض عن حديثك بنظره ، كأنما جئت تلقى تحت نظره ميزانية الأفلاس تنطق له بأن ما على مصر أكثر مما لها — يقول لك الأمة ضعيفة لا سلطة لها . والأخلاق متحللة . والاحتلال لا يعمل شيئاً لترقيتها . فكل جهد ضائع وكل عمل غير نافع — يقول لك ذلك وزفراته يلحق بعضها بعضاً دلالة على أن نفسه تذهب على وطنه حسرات . ومع الأسف أن هؤلاء اليائسين هم بفضل مراكزهم قدوة للكثير من الشبان ينقلون إليهم هـذا المعنى ، معنى اليأس الذى يبعد عليه أن يأتى بنفع البلاد . . على أن الحس يثبت لنا كل يوم بالأمثلة أن المرء من طبعه أن لا يقنط من أمر محبوب لديه . بل النفس مائلة للاعتقاد بوقوع ما تحب دائماً حتى من غير دليل . وترى الخصم أمام القضاة لا ييأس من كسب قضيته ولو كان مبطلا عالماً بباطله . وترى الموظف لا يقنط من الرقى مهما قامت لديه الأدلة على عدم كفاءته وتصميم رؤسائه على عدم ترقيته . والتاجر الذى كثرت عنده البضاعة ونزلت عليه السوق ، لا يقنط من ارتفاعها ثانية أى من الربح المنتظر

الجريدة فى ١٤ من سبتمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٦٧٥

مهما دلت المقدمات على نقيض ذلك حتى يقع فى الافلاس. ذلك بأن الإنسان من دأبه الرجاء . وإنه لحب الخير لشديد . فما أعجب من شيء عجبي لرجل يحب خير وطنه كما يحب الخير لنفسه أو أشد ، ومع ذلك سرعان ما يتسرب إليه القنوط من نجاحه لأول صدمة أو لظهور عرض من الأعراض الزائلة غير مناسب لوسائل الارتقاء .

استغفر الله من إن أقول إن فى وطنية أولئك اليائسين دخلا أو فى قولهم زوراً . ولكن الذى أراه أن ما هم فيه من اليأس ليس نهائياً ولكنه متقطع يطوف عليهم كلما ظهرت بوادر الفشل ويذهب عنهم كلما ظهرت طلائع النجاح فتسميته يأساً فيها تسامح. وأولى بهذه الحال أن تعد ضرباً من التردد الذى ينتج دائماً عن عدم فهم وسائل الرقى فهما صحيحاً ومن الخطأ فى تقدير مركزنا تقديراً تاماً ، لا يدخل إليه الشك من أى مكان .

إن الحكم على حال مصر الحاضرة حكماً صحيحاً وفهم وسائلها للتقدم فهما تاماً والعمل لتقويتها عملا متواصلا ، يجعل المصرى لا يبالغ فى نتائج بادرة من بوادر الفشل ولا ينخدع بطليعة من طلائع النجاح . بل يستمر سائراً فى عمله الهادى المتين يأخذ من أسباب الفشل درساً نافعاً يتقى به أمثالها فى المستقبل من غير ضجر ولا فزع . ويستفيد من طلائع النجاح سروراً كامناً وقوة تشجعه على مضاعفة خطاه البطيئة الثابتة إلى الأمام .

الحكم على حال مصر يتوقف على الحكم على الاحتلال وعلى سلطة الأمة

ولست أجد سبباً لليأس من قبل الاحتلال الانكليزى ولا من اليوم القريب الذى تتحقق فيه سلطة الأمة .

حكمنا على الاحتلال الانكليزى انما هو كما نحكم على نازلة من السماء لا نستطيع رفعها ، ولكننا نستطيع أن نحولها إلى مصلحتنا ونتق أضرارها كلها أو بعضها ، حتى ينقضى أجلها وتمحى آثارها . ولقد صرح الاحتلال بأنه يرمى إلى الغرض الذى نرمى إليه نحن من تقوية مصر حتى تقدر على حماية نفسها والمصالح الانكليزية فيها من أن تعبث بها يد قوية . فما علينا ألا أن نطالبه كل يوم بأن يقوم بما افترضه على نفسه وأن يسلك السبل التى توصل إلى هذا الغرض المشترك . وعلينا نحن من جانبنا أن نكون أسرع منه إلى سلوك تلك السبل وانشط إلى وضع المقدمات والعمل إلى النتائج ونبالغ فى ذلك حتى نسبقه إلى الاصلاح نحن بأنفسنا . لأننا على صدق هذا الوعد نحن المنتفعون أولا و بالذات . لأن الانكليز لهم غير الهند . وليس لنا إلا مصرنا

من المعوقات لنا عن السير إلى الأمام أن نتجاهل وجود الإنكليز فى بلادنا وهم موجودون بالحس . وننكر سلطتهم بالفعل جر ياً وراء قواعد القانون الدولى فنغير القواعد كل يوم . وسلطتهم الفعلية هى المرجع فى كل مسائلنا المصرية الداخلية منها والخارجية فى يدهم كثير من الوسائل لرقينا. فاعراضنا عن هذه الوسائل لا يفسر إلا بأننا نزهد فى نتيجتها وهى القوة والاستقلال . ولو لم نكن جر بنا هذا الاعراض لكنا معذورين ، ولكننا

جربناه فكانت النتيجة ما رأيناه . فليس إلا أن نشتغل من جانبنا لمصلحتنا . ونحملهم — والحالة الدولية الخارجية كما ترى — على أن يسيروا معنا لتحقيق وعودهم ولنسهل عليهم الواجب الذى ادعوا أنهم يحملونه على عاتقهم . لو فهمنا ذلك فهماً صحيحاً وطالبنا بالحاح أن يشركونا فى التشريع وفى إدارة البلاد على القدر الذى تسمح به الظروف الآن ، لاستعملنا وقتنا فى مصلحتنا دائماً ولما تركنا حاضراً معطلا من العمل والمستقبل ليس بيدنا ولا بيدهم ولكنه بيد الله .

لو سلكنا هذا الطريق ونجحنا فيه لحققنامقداراً من سلطة الأمة نستخدمه هو نفسه بالعمل للحصول على ما يبقى منها بالزمان .

فأما كون الأمة ضعيفة والروابط الاجتماعية متحللة وسلطة الأمة معدومة فهذا قول سطحى صرف .

لا أستطيع أن أصدق أن أمة كأمتنا جامعة بين الاستعداد الاجتماعى والاستعداد العلمى تفقد قوميتها أو سلطتها متى وقعت فى أعراض المرض والضعف بل الواقع يشهد أن أمة كهذه يستحيل أن تحكم عن رغم إرادتها أو تغلب على حريتها إلا إذا كان لرضاها من ذلك نصيب عظيم . وإن سلطة الأمة موجودة بالفعل إن لم تكن معترفاً بها بالقانون ، موجهة إلى غير طريقها الطبيعى لأن الأحكام الماضية قد وجهتها إلى الرضى بالاستبداد قاعدة للحكم ، كما وجهت غيرهم من الأمم العربية إلى ذلك . فليس همنا إيجاد سلطه الأمة من العدم واستغفر الله — ولكن همنا هو تحويل السلطة

الحالية التي تصرفها الأمة تصريفاً غير طبيعي في خدمة غيرها إلى الوجهة العليا وجهة الحرية السياسية، وجهة خدمة نفسها واحتمال مسئولية شؤونها. ولا طريق لذلك إلا التعليم والتربية أن نوغل فيهما إلى حد يجعل الاعتقاد عاماً بأن السعي في تحقيق سلطة الأمة هو أول الواجبات الوطنية على الوطنيين.

إذا كان الاحتلال الانكليزي يستحيل أن يدوم إلى الأبد. وإذا كانت سلطة الأمة لا تلبث أن توجه بالتربية والتعليم إلى وجهها العالي النافع؛ وإذا كان عمر الأمة يعد بالأجيال لا بالسنين، فمن قصر النظر وضيق الصدر وقلة التفكير أن ننظر إلى المستقبل بنظارة سوداء أو أن تأخذنا الخفة بالشطط فنتخطى المقدمات إلى النتيجة جهلا بطبائع الوجود. بل الواجب علينا أن نتكاتف جميعاً على انتشال الأمة من مراقد الضعف وأن نغرس اليوم معتقدين أن ما نفعله اليوم نلقاه غداً، وأن نصبر على مبادئنا لا ننتظر أن نجنيها قبل أن تأخذ نماءها الطبيعي وتنتج ثمرها المطلوب.

فى سبيل الارتقاء

يكاد يكون من المضحك أو من المحزن أننا حتى اليوم لا نزال نبحث فى وسائل انتقالنا من الحال الأولية ، حال الضعف والجهل ، إلى حال من القوة والعلم ، متناسبة مع مقتضيات الزمن الحاضر ، وكان من اللازم أن نكون قد فرغنا من القواعد العمومية من عشرات من السنين وصرفنا كل همنا فى تطبيقها على الجزئيات اليومية . ولكننا مع الأسف لا تزال أكثريتنا بين يائس من الإصلاح جهلاً بطرائقه ، و بين عارف طريق الاصلاح ، ولكنه يراه طويل المسافة بعيد النتيجة فينكب عنه إلى طريق خيالى صرف، طريق التحمس وتنبيه شعور العامة تنبيهاً لا يجدون من قوتهم له منفذاً ، ولا من الظروف الحاضرة له مساعداً ، فينقلب أمرهم من التنبه الإصطناعى إلى اليأس من كل شيء . لأن تنبيه شعور الناس تنبيهاً يومياً مستمراً إلى سوء حالهم مع عدم الانتفاع بهذا التنبه فى الأعمال المشروعة الهادئة ، إنما يكون فى ظروف الاضطراب ، وفى حال الاعتقاد بأن طريق الرقى هو استعمال القوة اعتسافاً . وهذا طريق خطر السلوك عقيم النتيجة .

نحن لا نعرف فى بلادنا أحداً معيناً يعتقد أن سبيل ارتقائنا هو غير

الجريدة فى ١٥ من سبتمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٦٧٦

السلام . فإن الأقلام فى مصر مجمعة على أن السلام هو الطريق الوحيد حتى أشدها تحمساً ، وأدخلها فى باب الطيش والتغرير. ولكن بعض الكتاب من الشبان أو غير المسئولين عن شيء فى مصر قد دأبوا على أن يضربوا الأمثال فى كتاباتهم بالحركات الأجنبية لا على القدر اللازم الكافى فى العبرة والتبصرة ، ولكنهم يكيلون منها كل يوم حتى بلغ من بعضهم عدم التبصر أن يبرر عمل الغادرين من غير أن يحسب النتائج التى تترتب على تبريره هذا والمثل السيء الذى يضرب به للشبان ، فيقع من حيث لا يشعر فى المذهب السيء من مذهب الذين يظنون أن مصر ترقى بغير السلام .

أعترف أن مذهب التطور والارتقاء مذهب لا تأخذ طرائقه بالأبصار ولا تخلب الألباب ، وإن كانت نتائجه باهرة لمن يستطيع العمل من غير جلبة والصبر اللازم لانتظار نتائج العمل . والواقع أن الارتقاء لا يكون إلا بالتعليم والتربية ، فأى مظهر يسحر أنظار الجمهور من مظهر معلم كفء فى مدرسته يصلح عقول الأحداث ويهذب طبائعهم ويحول ميولهم إلى حب الخير ، والجرى فى مجرى الحق والعدل ؟ فما هو إلا جيل واحد — لا يعد لحظة فى حياة الأمة — حتى يتبدل الوطن بساكنيه متحللِي الروابط ، رجالا قادرين بعقولهم وأخلاقهم وقوتهم على إعلاء شأنه والتشبث بإسعاده . نتيجة باهرة ، ولكن طريقتها منزوية عن العيون لا تبلغها حواس العوام ولا تحفل بها . بل لا تساوى عندهم فى طريق الوطنية والعمل للوطن أصغر القيم ، بل لا تساوى فى الوطنية أن يجرجروا بأيديهم عربة كاتب يكتب لهم ما يرضيهم

لا ما ينفعهم ، أو تقليد من يخرج من السجن فى جنحة قذف ، وسام شرف وفخار . أعترف بذلك ولـكنى لا أعترف من جهة أخرى أن العوام هم الذين نأخذ عنهم سبل تقدم البلاد . فحسبنا ما نألمه إلى اليوم من الطباع التى نقلها لنا العوام بحبهم الظلم وتجافيهم طرائق التربية والتعليم . يفرحون بالتحمس الفارغ . و يفرقون من جرائه ، حتى إذا فشل قائدهم أصبحوا عليه أنصاراً يحرجون مركزه و يسيئون إليه ، و يولونه بعد الاحترام احتقاراً و بعد النصرة خذلاناً .

طريق التربية والتعليم هو الموصل الوحيد ، ولـكنه — كما يقولون — لا برّاق الرداء، ولا حاضر النتيجة . فإنه كما لا يفرح به العوام جهلا بنتائجه ، ومن جهل شيئاً عاداه ، كذلك لا تتفق مشاعر الشبيبة الغضة على اتخاذه والإيمان به ، لأن انتظار نتائجه يخالف مزاج الشباب . وأخص صفات الشباب العجلة . وأخص ميوله الظهور بالقوة والبأس من غير أن يحسب مقدار قوته . والشباب من كرمه وطيب قلبه يحب التضحية يأتيها بغاية السهولة من غير نظر ولا تدبر ، فهو بذلك يستسهل الصعب ، بل قد يبغى المستحيل . لذلك كان الشباب الغض أنفع الأطوار الإنسانية فى المخاطرة ، ولـكنه بقلة تجربته وعدم اعتياده على حساب النتائج ، لابد له ممن يحسب عنه ، و يبين له الطريق المنتج من الطريق العقيم .

كلنا يحب وطنه ، وربما كان الرجل أعمق حباً من الشباب . وكلنا يحب سعادته بسعادة وطنه ، وربما كان الكهل أشد حباً للسعادة ، لأنه أشد حباً

للحياة. ولكن من الذى يستطيع أن يثبت لنا أنه يوجد لإسعاد وطننا طريق آخر غير طريق التربية والتعليم. أى من ذا الذى يستطيع إقناعنا بل إقناع نفسه هو، بأن استعمال القوة ولو بمظهرها الأدنى ينفعنا ولا يضرنا، أو أن عندنا قوة تستعمل!

لا أحد. ولكن أنصار الحركات — كما قال بعض المحامين الانجليز — هم غير المسئولين عنها من العجزة والنساء. وغير المفكرين فى العاقبة الطامعين فى الرقى السريع، وهم شبان الضباط. على ذلك نكرر النصيحة مع اعتقادنا بأن الأقلام والألسن فى مصر مجمعة على أن سلوك العسف مهلكة للأفراد وللأوطان — بأن طريقنا هو التربية والتعليم.

قد يقال: رأينا كثيراً من المتعلمين يتمرغون فى مراقع الطباع العامية لا يهتمون بكرامتهم ولا يقيمون وزناً للفضائل الاجتماعية، إذا كلفهم الحق فتيلاً عافوه واجتنبوه. وإذا حملهم العدل كلفة عادوه. فكيف يكون طريقنا الوحيد هو التربية والتعليم؟

قد يكون ذلك حاصلا فى بلادنا وفى غير بلادنا مع فرق كبير فى النسبة بالضرورة. ولكن هذا لا يطعن على نظرية الارتقاء بالتربية والتعليم فى شىء. فإن العيب إما أن يكون من الاستعداد؛ ولا شبهة فى أن مستوى الاستعداد الأمى يرق بالتربية والتعليم جيلا عن جيل. وإما أن يكون العيب من طريقة التربية والتعليم نفسها، فلا نتكلف إلا إصلاحها وتوجيهها إلى غرضنا منهما. وعلى كل حال، فإننا إذا جعلنا التربية والتعليم غرضنا ووجهنا إليهما العناية التى ننفقها عن سعة فى غيرهما مما لا فائدة فيه قدرنا ولا شكَّ على خدمة أنفسنا وسلكنا سبيلنا إلى الارتقاء.

الحرية

لو كنا نعيش بالخبز والماء لكانت عيشتنا راضية وفوق الراضية . ولكن غذاءنا الحقيقى الذى به نحيا ومن أجله نحب الحياة ليس هو أشباع البطون الجائعة . بل هو غذاء طبيعى أيضاً كالخبز والماء ، لكنه كان دائماً أرفع درجة وأصبح اليوم أعز مطلباً وأغلى ثمناً . هو إرضاء العقول والقلوب ، وعقولنا وقلوبنا لا ترضى إلا بالحرية .

إنا إذا طلبنا الحرية لا نطلب بها شيئاً كثيراً . إنما نطلب الغذاء الضرورى لحياتنا . نطلب أن لا نموت ، ولا يوجد مخلوق أقنع من الذى لا يطلب إلا الحياة ووسائل الحياة . كما أنه لا أحد أقل كرماً من ذلك الذى يضن على الموجود الحى بأن يستوفى قسطه من الحياة .

لست أعجب من الذى يستهين بحياة الرجل فيستعجل عليه القدر المحتوم . ولكنى أعجب من الذى يبالغ فى الرحمة بالإنسان يستحييه شبعان ريان يفهق جيبه بالنقود معطل الحرية ، قد ضرب بين عقله و بين الأشياء والمعانى بحجاب ، فلا يتناولها ، وحيل بين مشاعره وبين موضوعات غذائها فلاتتحرك بل تموت . أعجب من الذى يظن الحياة شيئاً والحرية شيئاً آخر ولا يريد أن يقتنع بأن الحرية هو المقوم الأول للحياة ولا حياة إلا بالحرية .

الجريدة فى ١٩ من ديسمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٧٥٤

أجل . إن المرء يحفظ حرية الفكر وحرية المشاعر أى يحفظ حرية الطبيعية حتى فى غيابة السجن . يحفظها فى كل حال هو عليها ما دامت روحه فى جسده . إنه خلق حراً . حر الإرادة . حر الاختيار بين الفعل والترك . حراً فى كل شىء حتى فى أن يعيش وفى أن يموت . غير أن هذه الحرية الطبيعية لا فائدة منها إذا تعطلت من آثارها . فالذى سجن والذى منع الكلام : والذى منع الكتابة ، كل أولئك يحفظون حريتهم فى نفوسهم ، ولكنهم فقدوا الانتفاع بها أى فقدوا بذلك الحرية المدنية .

كذلك الذين تركوا أحراراً كما خلقهم الله . أحراراً يقولون و يكتبون ما يشاءون ويعملون بالمعروف ما يشتهون . ولكنهم ليس لهم فى إدارة جمعيتهم إرادة محترمة . أولئك لهم الحرية الطبيعية والحرية المدنية ، وهم محرومون من الحرية السياسية .

لا نريد بذلك أن نتصدى للتعريفات الاصطلاحية لأنواع الحرية. ولكن جرنا إليه عرضاً التدليل على أن الحرية المعطلة عن الاستعمال هى فى حكم المفقودة وأن الحرية الطبيعية الملازمة للانسان لا يصح أن تسمى حرية، الا إذا كان ميسراً له استعمالها . أرايت أن المرء يرى الطريق بعينيه المعصوبتين ، ويأكل ويشرب ويبطش بيديه المكتوفتين . لكن العين المعصوبة واليد الموثوقة كلتاهما فى حكم المعدومة . إنما يكون المرء حراً بمقدار ما لديه من وسائل استعمال هذه الحرية . وإنما يكون حياً بمقدار ما جاز له

من الاستمتاع بالحرية . فالحرية الناقصة حياة ناقصة . وفقدان الحرية هو الموت . لأن الحرية هى معنى الحياة .

طبعنا على حب الكمال فى حياتنا ومعادات كل العوارض التى تعرض لنا فى طريق المثل الأعلى للمعيشة المستكملة وسائل الحرية وآثارها . ولا خيرة لنا فيما طبعنا عليه . وسواء كان هذا الشوق الطبيعى إلى حياة الحرية مصدرسعادة أو مصدر شقاء ، فإنه على كل حال نار تأجج بين ضلوع الحى لا تبرد أو تصل به إلى المرغوب . أجل إن المثل الأعلى ليس نقطة ثابتة ولا غرضاً محدود المسافة يمكن ، بلوغه بل كلما بلغناه انتقل شبحه أمامنا إلى نقطة أخرى على أبعد مرمى النظر لسنا بالغيه ولا منصرفين عن التشبث بادراكه . بل يسوقنا إليه حاجة لا قبل لنا بالصبر عن قضائها ولو كلفتنا أن نركب متن التعسف .

لذلك لا يزال يستغلق علينا فهم الاباطيل القديمة التى كانت الغطرسة الجنسية تأخذ بها الكتاب ليسقطوا فى هاوية التناقض .

يقولون إن بعض الناس خلق للسيادة أبداً و بعضهم خلق للعبودية أبداً . ولا نزال نرى هذا الخطأ يتردد فى آراء الساسة المستعمرين فى هذا الزمان على صورة أقل شناعة ، و بعبارة أكثر ائتلافاً مع مدنيتنا الحديثة ؛ يضعون أصابعهم فى أعينهم إذ تكون النتيجة المنطقية النهائية لهذه المقدمات الصادقة هى هذه الجزئية : (بعض الإنسان لا انسان)

كذبت فلسفتهم وصدق الذى يشعر به كل إنسان منا فى نفسه من الميل

إلى الرق فى كل شىء، وإلى الحرية قبل كل شىء. صدق هذا الأمر الذى نجده فى طليق الأسر أو السجن يوم اطلاقه. وفى محاولة المعقول أن ينشط من عقاله. صدق ذلك الألم الذى يجده ذو الفكرة العلمية من حبس حريته عن التصريح بها فتظل تجول فى نفسه، ويغلى فى نفسه حب ابدائها فى صدره يقلق خاطره ويكد ضميره ويحتوى على كل مشاعره، حتى يفضل الموت فى ارضاء هذا الحب على الحياة فى كتمانه. وكم عالم استحب الموت على الحياة فى سبيل حبه لحرية اقتناعه العلمى. فمنهم من قتل ومنهم من حرق ومنهم من حبس أو عذب. وجلهم من تلك الأمم التى يقولون أنها خلقت لغير السيادة. فإذا وجدت عبداً لم يؤثر الحرية على العبودية ولم يطب نفساً بالعتق من الرق، فذلك مثل من أمثلة التشويه النادر فى بنى الإنسان وليس قاعدة يصح الأخذ بها. وحسبنا أن نرى الأدلة الحسية قائمة على أن حفظ الوجود الذاتى المجرد عنه آثار الحرية ليس أعز على نفس الإنسان من الاحتفاظ باحترام حريته. وأن الذى يراجع ماضى العالم لا يجد أمة من الأمم المخلوقة للعبودية — كما يزعمون — الا قاتلت عن حريتها. وإذا كان أصدق المعلومات هى تلك المعلومات التى تقدمها لنا المشاهدة الواقعة، ومادامت هذه المشاهدات تدلنا على ما ذكرنا بعض أمثلته، فالإنسان — على الرغم من فلسفة الاستعماريين — حر بطبعه ميال إلى الحرية، ميال إلى الترقى فيها إلى المثل الأعلى، وأنه لا تفاوت بين أفراد الإنسان الا فى تقدير هذا المثل الأعلى وفى سهولة الوسائل الموصلة إليه.

الحرية طبيعية، وميل الناس إلى تحصيلها طبيعي بالضرورة، يشتد ويظهر مع القوة الحيوية ويضعف وتخمد آثاره مع الضعف . فكما أن القوى لا يموت جوعاً كذلك لا يصبر على الحياة البعيدة عن المثل الأعلى للحرية. ولقد أصبحنا فى بلادنا ندرك الحرية بمثلها الأصلى الذى يأتلف مع شرف الإنسان فى هذا الزمان . فقد أصبحنا نمتعض من كل فكرة ومن كل قانون ومن كل عمل يمس الحرية الشخصية أو يعطل استعمال الحرية المدنية فى غير الحدود المتفق عليها فى أعلى البلاد مدنية ، وأصبحنا كذلك نرى أن الحكومة المعقولة الوحيدة المطابقة لشرف الأمة هى حكومة الدستور . ومنا من لا يخشى أن يصرح بأن استقلال الأمة هو الطلبة الكبرى التى يجب أن توجه إليها قوى الشعب بأسره ، فلم يبق علينا للتدرج فى مراقى الحرية والتقرب من مثلها الأعلى المتفق عليه بيننا ، إلا الوسائل المنتجة . فإن إرادة الأمر شيء والقدرة عليه شيء آخر .

أما القوة فإن طبيعتها تختلف فى كل زمان ومكان تبعاً لطبيعة عيشة الأمة واعتقاداتها الدينية وعاداتها وأخلاقها ، ونتيجتها تختلف دائماً باختلاف طبيعة الوسائل التى يمكن استخدامها . وعندنا أن أول مظهر للقوة هى القوى المعنوية قوة الحرية العلمية . فإن الآراء العلمية ليس من شأنها أن تجد من القوة القاهرة خصوصاً فى الأزمان الحاضرة معارضة تذكر . فإذا استخدم المتعلمون ارادتهم فى اظهار حريتهم العلمية ، كان لهم من ذلك مرانة تنفعهم فى تربية اخلاق الشعب وتعويده على حرية الرأى والصبر على

الأذى الذى ينتج دائماً عن حرية الرأى ، سواء أكان ذلك من الحكام أم من المحكومين .

إن الذين يبخلون علينا بالقرب من المثل الأعلى من حريتنا التى أتانا الله أياهامن فضله ، يجدون من أمثلة تقصيرنا فى اظهار حرية الرأى فى العلم وفى السياسة ما يحتجون به فى إراداتنا على البقاء على ما نحن عليه . فإذا أحسوا من حريتنا فى الآراء العلمية الإرادية قوة لا يقف أمامها استهزاء الجهلاء ولا غضب الكبراء ولا استدرار المنافع الخسيسة ، لا يجدون مندوحة من التخلية بيننا و بين طريقنا إلى المثل الأعلى لحريتنا . ومن قصر النظر أن يظن أن هذه القوة المعنوية قوة التمسك بالحرية والتماسك على نصرتها غير كافية فى تقريبنا من مثلها الأعلى . أقول وأؤكد أنها هى وحدها كافية فى إنالتنا طلبتنا ، فلنرض نفوسنا على الاستمساك بها ولننتظر النتيجة .

إن تقدمنا فى نيل قسطنا الطبيعى من الحرية يستحيل أن يوجد ولو كانت فى أيدينا أكبر معدات القوة الوحشية ، وكان عددنا اضعاف ما نحن عليه ، إذا كنا لا نتخلص من وصمة عبادة الآراء والأفكار من غير تمحيص اعتماداً على مكانة قائلها . وإذا كنا لا نقطع بأيدينا تلك السلاسل التى قيدت عقولنا والاوهام التى أفسدت علينا الاستفادة من المبادىء الجديدة . أننا إذا جربنا أن نرفع منار الحرية فى الميدان الذى لنا فيه حرية العمل وليس لنا فيه مزاحم ولا شريك كان ذلك فاتحة خير لإظهار شىء من القوة الضرورية لظهور الحرية وتأييدها .

تضامننا

إذا كان العلم بقواعد جمعيتنا موجوداً بالفعل بين أيدينا وتحت نظرنا ، فمن إضاعة الوقت أن نطلبه عند غيرنا . وإذا كانت أساليب بيانه على أطراف ألسنتنا ، فمن التعسف أن نبحث فى الكتب لنعثر عليها . فإن العلم الصحيح ما جاء من طريق المشاهدة ، وخير البيان ما كان مألوفاً عند جميع الطبقات .

لا شبهة عند أحد منا فى معنى كوننا أمة متميزة عما عداها بمشخصات خاصة بنا ، قد لا يشركنا فيها غيرنا من جميع الأمم . لنا لون خاص وميول خاصة ولغة واحدة شاملة . ودين للأكثرية واحد وكيفيات فى تأدية أعمالنا ودم يكاد يكون واحداً يجرى فى عروقنا ، ووطننا محدود الجهات بحدود طبيعية يفصلنا عند غيرنا ، لا بحدود وهمية كما هو الأمر فى بعض الممالك ، ولكن بحدود طبيعية تكاد تجعلنا فى معزل عمن عدانا . لنا تاريخ قديم طويل ذو مراتب وأقدار اتصلت سلاسله بحلقات متينة ، فأصبحت سلسلة واحدة أولها قبل التاريخ وآخرها هذه الحلقة التى نقطعها ، دائرتها فى عصرنا هذا وفى سنتنا هذه ، فنحن بذلك فراعنة مصر ونحن عرب مصر ونحن مماليك مصر وأتراكها ، ونحن المصريون . فما نحن تحت حكم العائلة

الجريدة فى ٢ من يناير سنة ١٩١٣ العدد ١٧٦٦ .

الخديوية ، إلا نحن نحن بأنفسنا تحت حكم العائلة الأولى الفرعونية أو تحت حكم من قبلها أيضاً بشيء من التطور الزمنى قضى به التغيير العالمى المستمر، حافظين لكثير مما ورثناه من آبائنا الأقربين والأبعدين . كل هذه المشخصات القومية المادية والمعنوية الوراثية والكسبية، من شأنها أن تجعل بيننا رابطة الجنسية أقوى منها فى أكثر الأمم . وأنها لكذلك لولا ما يراه النزر اليسير من حب الانتساب إلى العرب دون الفراعنة أو الفراعنة دون العرب أو الترك دون الشركس أو الشركس دون العرب من غير أن يعرفوا أن العوامل الموضعية ، عوامل الإقليم والقرابة والنسب والاشتراك فى المنافع ، قد أخرجت من أهل مصر عجينة واحدة هى أم هؤلاء المصريين على السواء، الأبيض منهم والقمحى والأشقر والأسمر . كل أولئك أبناء مصر ، سعادتها لهم وشقاؤها على رؤسهم . منافعها إلى جيوبهم ، وهمومها على مناكبهم لأنهم جميعاً هم المصريون .

صيغتنا فى هذا التضامن القومى صيغة عامة لا يوجد لسان مصرى لم تجر عليه سورتها . تعرفها طبقاتنا وهى من أمثالنا الأمية الشائعة فإننا نقول . « أنا وأخوى على ابن عمى » « وأنا وابن عمى على الغريب » .

تلك هى الصيغة التى تلوكها ألسنتنا فى كل مجلس والتى أشبعناها فهماً ، فهى لا تحتاج إلى تفسير ولا إلى الألفاظ الضخمة غير المألوفة والمعانى المترامية الأطراف غير المحدودة فى الأذهان . كمعانى المشابهات والفروق وحدود دوائرها . والتشبث بالتزامها وإلزام الناس بفهمها على الطريقة

المدرسية ، بل صيغتنا المعروفة القريبـــة تغنى عن الصيغ البعيدة والعبارات العالية .

العائلة هى الوحدة فى تأليف الأمة . والعائلة لا تقوم إلا بالعصبية . ومثل العصبية فى العائلة الجنسية فى الأمة . فالأخ الأقرب ، الأخ فى العائلة والذى يليه الأخ فى القومية . فلا جرم أن يكون هذا المثل العائلى هو بعينه المثل القومى . إذ لا نعرف أن تضامن الأخوين من أب واحد مؤسس إلا على المنافع المعنوية والمادية المشتركة بينهما والجاذبية التى ولدتها بينهما المشابهة فى الصورة والزى والميول ووحدة التربية . وما تضامن الأخوين فى المصرية إلا مؤسس على تلك الأسباب بعينها . وما الأسباب المتشابهة إلا منتجة نتائج متشابهات كذلك . وما هذه المشابهات إلا الجنسية أو العصبية القومية أو المصرية . فَبُعْداً لمصرى لا يحب المصرى أكثر من جميع المخلوقات، أولا يحترم المصرى اكثر من غيره ، أو لا يعتقد بأن المصرى هوأخوه الحقيق بموضوع حنانه وشفقته ومحط خيره ومعقد رجائه ومحل مساعدته .

إن العمل لعصبيتنا الجنسية ضرورى لنا ، لأننا يستحيل علينا أن نعيش أفراداً . فالذى يذكر العصبية المصرية آناء الليل وأطراف النهار هو الحقيق وحده بشرف الإنتساب إلى هذا البلد الشريف . والذى ينفع المصرى، إنما ينفع نفسه فى شخص أخيه .

قد يقال ما بالنا نطرى العصبية الجنسية ونشوّق إلى منافعها الباهرة ونجعلها أساساً ضرورياً ، للحياة فى حين أن كثيراً من أسـاتذة التمدن

الحديث أخذ يهدم بمعول العلم فى أساس العصبيات الجنسية ويدعو إلى قطع سلاسل الفوارق بين الأمم المختلفة متوسعاً فى معنى الإخاء الإنسانى ، مجتازاً حدود الأوطان ومعانى الأثرة الوطنية ؟ نقول قد يكون ذلك إذا تم أَلْيَقُ بشرف الإنسان وأنفع لهذا العالم ، ولكننا نحن المصريين ونحن أمة ناهضة تريد أن تعيش قبل كل شىء عيشة استقلال متواضعة لا مدعية أنها تقود العالم أجمع إلى منافعه — نقول ونحن كذلك ، لا نستطيع أن نبتدىء بتعاليمنا من الآخر . فإن ابتكار « الانترناسيوناليزم » أو توحيد ميول الجنس البشرى ومنافعه، هى بالفعل حلقة أخيرة لسلسلة رقى طويل فى الأفكار والأعمال . ولكل أمة على قدرها رأى هاد .

لذلك نقرر بأن الذى يريد أن يطمئن فى داره فليعمل لنماء روابط الجنسية المصرية . والذى يريد أن ينجح فى الأعمال الحرة فليعمل لنماء الجنسية المصرية . والذى يريد أن يكون من الموظفين مسموعى الكلمة فليعمل لنماء الجنسية المصرية . والذى يريد استقلال مصر فليعمل لنماء الجنسية المصرية . ذلك هو أساس القوة والقوة ركن الحياة وشرط البقاء .

مصريتنـــــا

لو كان الأغريق حينما ملكهم الأتراك خرجوا من قوميتهم ونبذوا حفائظهم الجنسية واحتقروا الانتساب إلى بلادهم ونسوا أنهم اليونان ، لبادت شخصيتهم ولماتت فى نفوسهم أطماع الاستقلال ببلادهم ولاستحال عليهم أن يستردوا شرفها . ولكنهم على الرغم من ضعفهم قد احتفظوا بقوميتهم وتضامنهم ولم يخزوا أوطانهم بالانتساب إلى غيرها ففازوا بما كانوا يطلبون .

كذلك الطليان ضعفوا وتفرقوا ووقعوا تحت حكم النمسا وفرنسا فلم يستردوا استقلالهم ولم يستعيدوا مجدهم إلا باستمساكهم بقوميتهم وحبهم لبلادهم ، فما سمع عن أحدهم أنه قال إنه فرنساوى ولو كان من أصل فرنساوى ولا قال إنه نمساوى ولو كان من أصل نمساوى، بل كلهم ينتسب إلى إيطاليا ولو أنها ضعيفة مغلوبة على أمرها . ولولا تشبثهم بالانتساب إلى بلادهم لما تضامنوا فى احتمال مصائبها ذلك التضامن الذى أدى بهم آخر الأمر إلى شرف الاستقلال ، ثم إلى السمو إلى مصاف الدول العظمى الاستعمارية .

كذلك نحن المصريين نحب بلادنا ولا نقبل مطلقاً أن ننتسب إلى وطن غير مصر ، مهما كانت أصولنا حجازية أو بربرية أو تركية وشركسية

الجريدة فى ٩ من يناير سنة ١٩١٣ العدد ١٧٧٢ .

أو سورية أو رومية. أقمنا فى مصر وطناً لنا وعقدنا معها عقد صدق ترزقنا من خيرها ونقوم على مصالحها ونفدى شرفها بأرواحنا . فما النزر اليسير الذى لا يزال يحب الانتساب إلى قوم غير المصريين أو إلى وطن غير مصر إلا ناكث عهده ومتاجر بشرفه . إذ من القواعد الأولية للعيشة الإنسانية أن « الغرم بالغنم » فالذى يعيش فى مصر يجب أن يدفع ثمن هذه العيشة الراضية محبة لها وحناناً عليها ، وأقل أقدار المحبة عدم عقوقها والانتساب إلى غيرها .

أرأيت أنه يحل للمرء أن يقطع نسبه لعائلته إذا وقعت فى الضعف أو فى الفقر ثم هو بعد ذلك يعتبر نفسه رجلاً شريفاً ؟ وما قوم الرجل إلا عائلته الكبرى ؟ ! أليس إقرار المصرى بانتسابه إلى العربية أو التركية ، لا يدل إلا على أنه يحتقر وطنه وقومه وما الذى يحتقر قومه إلا محتقر لنفسه .

على أن الانتساب إلى مصر لا يمكن أن يكون عاراً، فإن مصر بلد طيب قد ولد التمدن مرتين وله من الثروة الطبيعية والشرف القديم ما يكفل له الرقى متى كرم أهلوه وكرمت عليهم نفوسهم وكبرت أطماعهم فاستردوا شرفه وسموا به إلى مجد آبائهم الأولين .

قوميتنا أولها أن نكرم أنفسنا ونكرم وطننا فلا ننتسب إلى وطن غيره ونخصه وحده بكل خيرنا وكل منافعنا ونحيطه وحده بكل غيرتنا ، فما هو أصغر من أن يصبح من أعلى الممالك ولا أجدب من أن يصير من أغنى

البقاع . فالذى يفرط فى شرف مصر ويقول فى المجالس أنه منتسب إلى غيرها ، يؤخر بمقدار مركزه فى الجمعية المصرية سير التقدم المصرى المطلوب ويكون بذلك جانياً على بلاده جانياً على نفسه .

وإنه ليسرنا أن هذا الفهم قد أصبح عاماً فى الأمة بعد أن اعتقد الناس أن رقى مصر لا يجيئها من الخارج بل هو نتيجة عمل أبنائها وأن الاتكال على غير المصريين فى حل المسألة المصرية لمصلحة مصر ضرب من العبث . وليس العمل على هذه النظرية جديداً فى مصر . فإن محمد على باشا الكبير كانت أقواله المأثورة وأعماله المشهورة تدل بجملتها على أنه يلحظ فيها تطبيق نظرية القومية المصرية . وجرى على سننه خلفاؤه الأمراء وكثير من ذوات مصر وأعيانها وأخذ الجيل الجديد الحاضر يفضل البضاعة المصرية على غيرها بقدر الإمكان ويرغب فى تمصير المدنية الأوروبية على قدر الإمكان ، ويؤثر منفعة المصريين جهد المستطيع . كل ذلك يبشر بأن القومية المصرية ستستأثر فى عهد قريب بقلوب المصريين ، ولا يكون منهم إلا من يرى من الشرف العظيم الانتساب إلا هذا الوطن المحبوب .

المصرية

سئل أحد علمائنا البلغاء فقيل لى ما المصرى ؟ فقال : المصرى هو الذى لا يعرف له وطناً آخر غير مصر . أما الذى له وطنان يقيم فى مصر ويتخذ له وطناً آخر على سبيل الاحتياط ، فبعيد عليه أن يكون مصريا بمعنى الكلمة .

كان من السلف من يقول بأن أرض الإسلام وطن لكل المسلمين . وتلك قاعدة استعمارية ينفع التحدى بها كل أمة مستعمرة تطمع فى توسيع أملاكها ونشر نفوذها كل يوم فيما حواليها من البلاد . تلك قاعدة تتمشى بغاية السهولة مع العنصر القوى الذى يفتح البلاد باسم الدين ، ويحب أن تكون أفراده كاسبين جميع الحقوق الوطنية فى أى قطر من الأقطار المفتوحة ليصل بذلك إلى توحيد العناصر المختلفة فى البلاد المختلفة حتى لا تنقض أمة من الأمم المفتوحة عهدها ولا تتبرم بالسلطة العليا ولا تتطلع إلى الاستقلال بسيادتها على نفسها . أما الآن وقد أصبحت أقطار الشرق غرضا لاستعمار الغرب ، وانقطع أمل هذه الأمم الشرقية فى الاستعمار ووقفت أطماعهم عند حد المدافعة لا المهاجمة ، والاحتفاظ بسلامة كل أمة فى بلادها من أن تمحى

الجريدة فى ١٦ من يناير سنة ١٩١٣ العدد ١٧٧٨

جنسيتها و يفنى وجودها. فإن أكبر مطمع لكل أمة شرقية هو الاستقلال .

أما الآن والحال كذلك فقد أصبحت هذه القاعدة لا حق لها من البقاء لأنها لا تتمشى مع الحال الراهنة للأمم الإسلامية واطماعها . فلم يبق إلا أن يحل محل هذه القاعدة المذهب الوحيد المتفق مع أطماع كل أمه شرقية لها وطن محدود . وذلك المذهب هو مذهب الوطنية .

على هذا النظر ، يجب أن نقرر أن المصريين هم أهل هذا القطر المصرى الأصليون وكل عثمانى أقام فيه على سبيل القرار واتخذه وطناً له دون غيره من الأوطان العثمانية الأخرى . وليس هذا المذهب جديداً ، بل هو مذهب القانون المصرى من زمن طويل .

هؤلاء المصريون من حقهم أن يكون لهم الانتفاع بمصر أولا و بالذات ، وعليهم الواجبات القومية المكتوب منها فى القوانين والمفروض بالعرف . عليهم أن تكون محبتهم لها خالصة من كل إشراك . وتفانيهم فى خدمتها بعيداً عن أى اعتبار آخر . عليهم أن تدل أقوالهم وأعمالهم على انهم لا دار لهم إلا مصر ولا عشيرة لهم إلا المصريون . اؤلئك هم المصريون . إلا الذين يظنون أن مصر مستغل وقتى يستغلونه ، لهم غنمه وليس عليهم غرمه، أو الذين يتمثل الوطن فى عقولهم بصورة تجارية لا يخالطها أثر من آثار العواطف القومية . اؤلئك يصعب على مصر أن تتخذهم أبناءها وتلقى على كواهلهم همها فى الحاضر وأطماعها فى الاستقبال .

لا يفهم مما أقول أننا ندعو إلى التفريق بين العناصر المؤلفة لكتلة السكان المصريين . بل على ضد ذلك ندعو للجامعة المصرية كما دعونا لها من قبل. ندعو الذين يتبرمون بالجنسية المصرية التى كسبوها بالاقامة فى مصر ، أن لا يفروا بأحاديثهم و بأعمالهم من الانتساب إلى هذه الجنسية الشريفة . يقيمون بأجسامهم فى مصر وعقولهم وقلوبهم تتجه غالباً خارج حدودها إلى الأوطان التى ضنت عليهم بخيرها ولفظتهم من أرضها . ندعوهم أنهم ما داموا مصريين أن يقطعوا ميولهم عما عدا مصر ، لأن الوطنية — وهى حب الوطن — لا تقبل الشرك ولأن الرقى المصرى محتاج لعقولهم الراجحة وسواعدهم القوية .

سيقولون اننا بما نقرر لا نأتى بشىء جديد ، ولكننا نذكر الأوليات الوطنية التى يجب أن نكون قد فرغنا من أمرها من زمان طويل . نعم ونحن نقول ذلك مع القائلين . ولكن هذه الأوليات الوطنية لا تزال مع الأسف غير معمول بها ، لدينا منها مثالا شائعاً جداً يدل فى عمومه على نقص إدراك الوطنية المصرية وانحطاط فى المطامع المصرية . فلو رجع كثير منا إلى أنفسهم ونظروا فى أعماق ضمائرهم وراجعوا ما يقولون فى مجالسهم وتدبروا أعمالهم ، لرأوا أن بعضنا لا يزال يحب الانتساب إلى بلاد العرب أو إلى سوريا أو إلى تركيا دون مصر . وهذا الميل يبين فى القول و يتجسم فى العمل . فمن ذا الذى يستطيع أن يسمى

هذا الميل ونتائجه وفاء لمصر؟ ومن ذا الذى يستطيع من غير تسامح أن يسمى من يحبون غير مصر مصريين؟

مصريتنا تقضى علينا أن يكون وطننا هو قبلتنا لا نوجه وجهنا شطر غيره. ويسرنا أن هذه الحقيقة شائعة فى الأكثرية المصرية، لأنّ هذا الشيوع سيوشك أن يعم جميع المصريين من غير استثناء .

آمالنا

أملنا فى المستقبل هو الخير . ويطمعنا فى ذلك أن مصر هى ، أول ما سقط من دول الشرق وهى كذلك أول ما نهض إلى الأخذ بالتربية والتعاليم الحديثة ، وتنفيذ النظامات البيروقراطية على طريقة أقرب إلى العدل والرفق ، فأصبحت بذلك أغنى الأمم الشرقية ثروة وعلما وأشدها رابطة جنسية ، وقد كانت ولا تزال أوغلها رسوخا فى الصفات المدنية . كل ذلك يشجعنا على الاعتقاد بأننا سائرون إلى الأمام وأننا لا ينقصنا لحل مسألتنا المصرية حلا يتفق مع مصلحتنا من جميع الوجوه إلا العمل الجد والوقت الكافى .

لدينا كل وسائل العمل لمصلحتنا ، فلا يعوزنا الذكاء ولا الوطنية ولا الاستعداد ولكن يعوزنا شيوع الاعتقاد بأن مصر لا يمكنها أن تتقدم إذا كانت تجبن عن الأخذ بمنفعتها وتتواكل فى ذلك على أوهام وخيالات يسميها بعضهم الاتحاد العربى ويسميها آخرون الجامعة الإسلامية . فقد أعذرنا العقل وأبان لنا أن مصر لا تنجو من خطر التأخر والفوضى إلا بقواها الذاتية وأعذرتنا الحوادث إذ أنذرتنا بأن الاتكال على غير المصريين فى تحقيق آمال المصريين ضرب من اللعب بالمصالح ، وحال من أحوال العجز والقنوط .

الجريدة فى ٢ من مارس سنة ١٩١٣ العدد ١٨١٥

لم يأت لنا الماضى بمثل واحد يدلنا على أن أمة من أمم العالم ساعدت مصر وحمتها من المصائب التى كان يجرها عليها طمع الأقوياء فى ثروتها وفى مركزها الجغرافى النادر المثال . كذلك لم يأت لنا الماضى — فى غير مقتضيات الموازنة الأوربية — ان أمة تنظر من سماء قوتها إلى أمة ضعيفة تأخذها بها الرحمة فتطعمها وتسقيها وتدفع عنها مغارمها لوجه الله تعالى.

ولكن الذى نعرفه من الماضى أن العالم فى حال حرب مستمرة يصلى نارها الأحياء على السواء والغلبة فيها للأقوى . والأسر ثم الرق للضعيف .

ومن الخطأ أن يكون مقياس الضعف والقوة فى الأمة هو مقدار عدد النفوس أو الثروة . إنما مقياس عظمة الأمة هو صفاتها العامة الضرورية للنجاح فى الزمان الذى تعيش فيه . كان عدد أهل أثينا فى أوقات مجدها هو بعينه عددها عند سقوطها ، ولم يتغير فيها إلا الصفات التى هى ملاك القوة فى الأمم. ولسنا فى حاجة إلى استحضار التاريخ القديم فان الحاضر المشاهد فى النسبة بين عدد النفوس فى الأمم المستعمرة و بين عدد النفوس فى مستعمراتها لا يدع للشك مجالا فى أن الكثرة والثراء ليساهما العلة الأولى فى عظمة الأمة وقوتها . ولكن القوة والعظمة فى عدد الرجال المهذبين أو الصفات السامية والعقول المنتجة .

لكل زمان ولكل مدنية خواص فى الأخلاق والميول تكون هى علل النجاح . ولقد دلتنا الأمثلة اليومية على أن الأمة التى لا تسير فى تيار عصرها بل تقف جامدة على قدميها لا ينتظرها العالم فى سيره إلى الأمام ، بل يتركها

منقطعة لا تتجدد فيها قوى الحياة ولا تستطيع أن تأخذ بخواص النجاح فى الزمن الجديد ، فتقع فيما يشبه الفناء وذلك حظ الضعيف .

فى أنفسنا قد رأينا ان كل ما وقعنا فيه من شر الذل وفقد الاستقلال من عدة قرون ، إنما كان سببه تفريط المصريين فى الاستمساك بالصفات التى كانت يومئذ ضرورية لبقائهم أحراراً . وها نحن أولاء أصبحنا بالتربية الجديدة والأفكار الجديدة نسمع فى قلوبنا دبيب الطمع فى استقلالنا ببلادنا وتأخذنا الغيرة من الشعوب التى شبت فى هذا الزمان الحاضر ورفعت رأسها بين الأمم ولم تكن من الشعب المصرى ولا قلامة ظفر . فمن الطبيعى أن يكون نهوضنا متناسباً مع أطماعنا وأن يكون أول ما يجب علينا أن نتحرى فى أنفسنا صفات الضعف ننفيها عنها ونحل محلها صفات القوة أو أسباب الرقى .

إننا مهما كان مقدار حبنا للصفات التى ورثناها من الماضى ، يستحيل علينا أن نظن أن علة تأخرنا هو شىء آخر غير تلك الصفات .

ومن المستحيل أن يكون الضعف والقوة كلاهما معلولا لسبب واحد فى آن واحد باعتبار واحد . فرقينا أو قوتنا رهينة بنفى أسباب الضعف عنا مهما كانت هذه الأسباب أو تلك الصفات داخلة فى مشخصاتنا وممتزجة بعاداتنا وأخلاقنا .

سيقولون هل تريدوننا على أن ننزل عن أفكار آبائنا فى تكييف المصالح المصرية ، ونترك عاداتنا فى حب الاتكال على غيرنا والتباهى بجيراننا

واعتبارنا فى نظر أنفسنا أقل الشعوب مما يجرى على ألسنتنا فى الأمثلة وفى المجالس، وما يظهر على حالنا من معاملة غيرنا ، ونأخذ بصفات التمدين الجديد، هذا التمدين المادى تمدين المنافع والمبالغة فى حب الكسب واستخدام العقل البشرى والعلوم المختلفة فى تحصيل اللذائذ الشخصية والاطماع الاستعمارية ؟ انكم تريدوننا على أن نتغير وفى التغيير نزول عن الشخصية وفناء للأمة ؟؟

نعم . فإننا جربنا أفكار سلفنا الصالح فى هذا الماضى القريب فما كانت النتيجة إلا ما نحن فيه . فلم يبق إلا أن ننزل عن الأفكار والصفات التى كانت سبباً فى تأخرنا ونأخذ فى التغير والتطور حتى نستطيع المزاحمة فى معترك هذه الحياة المدنية، أو بعبارة أخرى حتى يرجع إلينا ما فقدناه من صفات القوة أو من قوة الأخلاق محافظين دائماً على عقائدنا الدينية الأولى التى كان عليها علماء الدين الأولون .قانعين من مشخصاتنا الحالية بما يكفل التميز بيننا وبين الأمم الأخرى تلك المشخصات التى لم يثبت لنا انها كانت سبباً فى تأخيرنا ، ولن تكون مثل لغتنا العربية وعاداتنا فى حب الضيافة والمواساة وأريحية الجود وبقية الصفات التى امتزنا بها فى حسن العشرة والعادات البريئة التى لها طابع يميزها عما عداها كعاداتنا فى شهر الصوم وكيفية احتفالنا بالأعياد والموائد العلنية فى المآتم والأفراح ! ! الخ الخ

ولكن الذى يجب علينا أن نساعد المدنية الحاضرة على نفيه عنا هو الصفات التى تولدت من نقص الاعتقاد بمصريتنا ، أى بأن لنا وجوداً خاصاً ومنافع خاصة يجب علينا تحصيلها بصرف النظر عما إذا كان هذا السعى

يأتلف مع أفكارنا القديمة أو يختلف عنها — وأن نتشبث بحقوق الشعب المصرية واحترامه فلا نسمح للخواص منا أن يسبوه باظهار اليأس منه والقنوط من رقيه ، ولا لعوامنا أن يجرى على ألسنتهم تفضيل غيره عليه . وأن نحارب الجمود على الماضى فى إمساك المرأة المصرية على اتباع المعروف فى الماضى القريب ، بل نسهل لها العمل هى أيضاً لمصلحتها ومصلحة المجموع وأن نأخذ أسباب القوة عن التمدن الجديد ، طائعين لا كارهين ، والزمان وحده كفيل بأن يصبغ الواردات الأوروبية بصبغتنا المصرية . لا شىء من ذلك يأتى بالنتيجة التى يخاف عقلاؤنا منها ، نتيجة أننا نفنى فى غيرنا . نحن لا نفنى فى غيرنا أبدا . ولكن قديمنا يفنى فى حاضرنا وحاضرنا يفنى فى مستقبلنا كما هى سنة التطور فى الوجود .

أقدم كل هذه المقدمات لأقرر أن آمالنا من المستقبل شعب جديد، يكون أقدر منا بصفاته على تحقيق أطماعنا القومية .

وعلى هذا الجيل الحاضر أو الشعب الحاضر أن يسهل للجيل الآتى سبل القوة وأسباب التطور ليحقق صبغتنا القومية وهى مصر للمصريين .

التقليـــــد

تعالى بديع السموات والأرض . لا ترانا الا مقلدين حتى في ابداعنا . في أزيائنا نبدع المودة على مثال قديم نأخذه كله أو نأخذه ممسوخاً أو محسناً أو نأتي بها على طريق التلفيق بجمع المثل الواحد من مثلين قديمين أو من ثلاثة مع تحسين في الوضع أو تشويه فيه . وتلك طريقة إبداعنا في الأزياء .

في المآكل تنتقل ألوان الطعام وصنوف الآنية وطقوس الخدمة من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة، يأخذها الخلف من السلف ويضيف إليها شيئاً من مقتضيات عصره ويصبغها بصبغته فتأخذ طابعاً جديداً يسمح للمقلد بأن يسميها باسم فيقولون المطبخ الشامي والمطبخ المصري والتركي والفرنساوي : الخ الخ . . .

تلك طريقة الابداع في المآكل .

في العادات العامة اليومية كيف نهض المرء من نومه وماذا يصنع للاستعداد للعمل من تطهير البدن من أعراض النعاس وتطهير النفس بالتوجه إلى الله استفتاحاً للحياة الجديدة في هذا اليوم الجديد . وكيف ومتى يذهب إلى عمله . ومتى يعود منه إلى راحة تفرق بين التعبين . وتحلى ما بين المرارتين . ومتى ينقضي وقت الراحة إلى العمل . في هذه العادات

الجريدة في ٤ من مارس سنة ١٩١٣ العدد ١٨١٧

اليومية وفى العادات العامة الدورية – المواسم والأعياد – ماذا يلبس المرء وبماذا يتزين على الطريقة اللائقة بالطبقة التى هو جزء منها . وكيف يحيى غيره ومتى تكون التحية وكيف يشترك مع الجمهور فى أداء الشعائر القومية . فى كل هذه العادات اليومية والدورية نحن نقلد اسلافنا تقليداً مشكلا بأشكال زمام العصر الذى نعيش فيه ، مشوباً بنتيجة تطور أفكارنا الحديثة . تلك طريقة الابداع فى العادات .

فى لغتنا نأخذ بالتلقين الألفاظ المفردة وكثيراً من التراكيب ثم تأتى الحاجات العصرية يتطور بها اللفظ فى الدلالة على معناه بل تتغير رويداً رويداً وجوه الدلالة فيتكلم ويكتب بعضنا على مثال بعض بتغيير قليل اقتضته شخصية المتكلم أو الكاتب وقوة نفسه أو ضعفها . وما الابداع فى التعبير إلا تقليد قضت به طريقة التفكير فى نفس العبقرى شاعراً كان أو ناثراً أو خطيباً .

فى العلوم والفنون والمعارف الانسانية . الواقع من أمرها أن تعلم أى بتقليد وتفهم ثم تمثل المعلومات فى نفس المتعلم فتختلط بملكاتها فيأتى بها بعد ذلك كأنها له ومن عنده وفضلة إبداعه وما أصلها الا التقليد .

فى الأخلاق ، فاضلها ورذيلها ، الشأن فيها تقليد مثل صالح أو فاسد وقدوة حسنة أو سيئة . ثم تقليده حتى يصير إتيان الفضيلة أو الرذيلة عادة ثم يصير خلقاً ثابتاً . وانى لا أنكر أن للوراثة فى هذا الشأن وفى غيره عملا كثيراً ولكن الانتقال الوراثى كأنه ضرب من ضروب التقليد الاجبارى فى لبسنا ومأكلنا ومشربنا وحديثنا وعاداتنا ومعارفنا وأخلاقنا

ومعاملاتنا، نجد معنى التقليد أصلا من الأصول الأولى، ولا نستطيع أن نفهم الابداع أى الايجاد من العدم ، الا مضافاً إلى من تفردت عظمته بالقوة والابداع . ولا شىء تحت الشمس بجديد ، حتى المخترعات التى يبين عليها أنها باكورة لجنسها الأول كالطيران مثلا فإنها تقليد صرف لمثال موجود . لم يغفل الطيارون ذكر المثال الذى قلدوه ، بل دونه مويليار وغيره من الذين كانوا يراقبون عن كثب ميخانيكية الطيران لدى الطيور المختلفة حتى وصلوا إلى نظرية فقلدوامنها مثالا بالطيارات التى نعرفها الآن .

إذا كان معنى التقليد متغلغلا هكذا فى أعمالنا وأفكارنا ومشاعرنا وميولنا، مختلطاً بها أصلا كبيراً من أصول التطور الإنسانى كل همه الوصول إلى كماله الممكن ، فكيف يمكن اعتبار هذا الأصل الإنسانى رذيلة ومسبة ينتقص بها الناس بعضهم بعضا فيقولون فلان مقلد فى قوة قولهم خسيس الهمة ذليل النفس تابع لا متبوع وفرع لا أصل وقياس على الناس لا فذ ولا شاذ .

الواقع أن التقليد معنى متفاوت الأقدار. فالاعتدال فيه فضيلة لازمة للرقى والأفراط فى تناوله ضرر وسخرية ، كالافراط فى غيره من المعانى . وأنهم ليظلمون معنى التقليد إذا أطلقوه على جزئه الرذيل دون جزئه الفاضل، وهو التقليد بعد التدبر وظهور المنفعة منه أو وجه الجمال فيه .

نحن فى حالنا الحاضرة وحاجتنا فى الأخذ عن التمدن الأوروبى حتى نجمع بين أسباب القوة اللازمة للمزاحمة فى الحياة، يجب علينا أن لا نقتل فينا خاصة التقليد المفيد بجعله سبة . بل على الضدّ من ذلك ، نرانا فى حاجة إلى

ترويجه حتى نقلد الأمثلة الصالحة من كل نوع فيكثر فينا عددها . دعونا نقلد فعسى أن تبلغ الصورة ما بلغه مثلها الأول . ولا حق لنا فى الخوف من أن تقليد غيرنا يقضى على ذاتيتنا ، لأن التقليد الكامل غير موجود ولأن كل واردات أوربا متى دخلت مصرنا كسبت صبغتنا وتكيفت بكيفياتنا اللغوية والدينية والأخلاقية . ولا يكون بعد ذلك الا أن تكسب طابعنا وتصير ملكا تامًّا لنا ، كما أن المدنية التى نقلها العرب عن الفرس واليونان قد أخذت طابعهم وصارت مدنية إسلامية . وما نقله اليونان عن المصريين صار أصلا للمدنية اليونانية مملوكا لها .

التقليد من أصول التطور والتطور طبيعى لا نستطيع نحن أن نقف فى طريقه فهو سيحصل بالفعل ، مهما كان استقبالنا اياه استقبال حفاوة أو استقبال امتعاض ومغاضبة . فخير للذين يقفون فى طريق تطورنا الاجتماعى أن يريحوا أنفسهم من عناء مصادمة الطبيعة ومن شر الخذلان ، بل يجب عليهم أن يساعدوه على أن يأتى بنتيجته السعيدة فى أقرب ما يمكن من الزمان .

سر تطور الأمم

نعم هذه هى رياضتى ! كذلك كان جواب هذا النابغة الكبير أحمد فتحى زغلول باشا وقد دخلت عليه فى بيته بهيليوبولس فى يوم حر شديد فألفيته يضع شرح القانون المدنى وإلى جانبه هذا الكتاب (سر تطور الأمم –) وقد فرغ من تعريبه فى بضعة أسابيع لازم بيته فيها لمرض أصابه فأشفقت عليه من هذا الشغل الشاق فى ذلك الجو المحرق على ما نعهده عليه من رقة فى الصحة وعمل دائم طول سنة العمل . وقلت له أبهذا ترتاض ياسيدى الباشا ؟ فأجاب (نعم هذه هى رياضتى) . فما كانت رياضة فى الصيف الماضى إلا أن أخرج لنا من ثمرة عمله وفكره وقلمه القدير كتابين اثنين تفسير القانون لم يظهر بعد وتعريب (سر تطور الأمم) وهو الذى بين يدينا حين نكتب هذه السطور . فنِعْمَ الرجل ونِعْمَ ما ينفق فيه وقته وصحته لينفع قومه .

علم فتحى باشا منذ شبابه الفضى أن رقى الأمة لا يكون بالصدفة ؛ ولكنه جهاد غايته فتح معاقل العلم والتربية وحصول الأمة منها على مقادير تسمح لها بالمزاحمة فى معترك الحياة العامة فجعل لا يخلى وقته من كتاب يعربه أو كتاب يضعه فى الحقوق إذا فرغ من شغله اليومى ، وما عهدناه فيه وانياً ولا عنه منصرفا ، سواء أكان ذلك أيام يشتغل برئاسة النيابة أم يرأس

الجريدة فى ٧ من ابريل سنة ١٩١٣ العدد ١٨٤٦

مجلس القضاء أو كما هو الآن يدير الأعمال ويضع المشروعات فى نظارة الحقانية . كذلك يملأ الرجل حياته وكذلك يعرف كيف ينفع قومه .

يظهر أن فتحى باشا شغوف فى المسائل الاجتماعية بأفكار الدكتور (جوستاف لوبون) على الأخص. وله الحق لأن أفكار هذا الكاتب الاجتماعى الكبير هى زبدة المعلومات الاجتماعية القديمة ونتيجة المشاهدات الحديثة ، لذلك كان أقرب الطرق لنقل القوانين الاجتماعية إلى مصر هو تعريب مؤلفاته ومؤلفات غيره من المعاصرين حتى نستطيع أن نعيش فى جيلنا عوضاً أن نسبح فى المعلومات القديمة غير عاملين بنتائج تطورها من حال إلى حال . ألا ترى أننا أخذنا قواعد القانون الفرنساوى الحاضر وجعلناها قانوناً لنا من غير أن نبتدىء بمصدرها الأول وهو القانون الرومانى . ولو أننا ندرس الآن الطبيعيات والرياضيات على قواعد اليونان القدماء لما كانت دراستنا لها تساوى شيئاً من التعب الذى نصرفه فيها . نحن نأخذ المدنية الحاضرة لنتسلح بقوتها فى المزاحمة على البقاء فلنأخذها على آخر طراز لها كما يأخذ فتحى باشا بالقوانين الإجتماعية على آخر تطور لها من قلم الدكتور جوستاف لوبون .

لسنا فى مقام تقدير التعريب فى هذا الكتاب فان فتحى باشا معروف القدرة فى الكتابة ومشهور الأمانة فى النقل وكتبه فى أسواق العلم كاسبة المقام الأول عن استحقاق :

وأما موضوع الكتاب فهو البحث فى مذهب المساواة بين الأفراد . وفى طباع الشعوب النفسية أو البسيكولوجية وفى ظهور أخلاق الأمم فى عناصر

مدنيتها وفى تاريخ الأمم باعتبار أنه مشتق من أخلاقها والبحث فى أثر المبادئ فى حياة الأمم وتأثير المعتقدات الدينية فى تطور المدنية وشأن عظماء الرجال فى تاريخ الأمم ثم البحث فى تحلل الخلق وسقوط الأمم . تلك هى موضوعات الكتاب ونحن من جهة أننا أمة ناهضة يفيدنا كثيراً أن نعرف نتائج بحث علماء الاجتماع فى قواعد صعود الأمم وهبوطها وعلل قوتها وضعفها ، فلا غنى لنا فى حالنا هذه عن الاهتداء بهذه البحوث الاجتماعية فى عملنا لمصلحة بلادنا خصوصاً إذا رأينا أن هذه القوانين لا يختلف تطبيقها فى بلادنا ولا تختلف نتائجها عن أطماعنا .

وأنه ليسرنا أن نرى الكتب التى عربها فتحى باشا وعلى الأخص (روح الاجتماع) و (سر تقدم الانكليز السكسونيين) قد تمثلت تمثلا حقيقياً فى العقول المصرية تشف عنه عبارات الكاتبين فى الصحف الذين ليس لهم مرانة بقراءة الكتب الاجتماعية باللغات الأجنبية .

نؤكد ذلك لا إظهاراً لاعترافنا بجميل المعرب فقط ولا تذرعاً لمطالبته بأن يزيدنا من مؤلفاته ومعرباته فانا نحسبه فى غنى عن ذلك . ولكن لنبين بالحس مقدار المنفعة التى نجنيها فى تصحيح أفكارنا الاجتماعية من نقل مثل هذه الكتب إلى لغتنا . ولنتخذ هذه المشاهدة دليلا جديداً على أن أساس رقينا ليس شيئاً آخر إلا نقل قواعد المدنية إلى بلادنا .

فإلى كاتبنا الكبير فتحى زغلول باشا نقدم التهنئة على أن غرسه قد أثمر . ذلك هو خير جزاء يجزاه من يصل الليل بالنهار فى نفع قومه من أقوم طريق وهو طريق القلم .

الحرية الشخصية

نسير يحدونا الرجاء إلى تحقيق سلطة الأمة فيسلم شرفها وننعم نحن بما نعتقده سعادة الاستقلال . غرض كثير العقبات ليس منا على مقربة ، ولكنه هو الذى يصح أن يسمى غرضاً حقيقاً بالأمة المصرية الكريمة . وهو وحده الذى ينبغى أن يكون مرمى نظر الجمعية والأفراد . ووسيلتنا إليه الاستمرار على العمل والصبر على نتائجه ومحاولة جعل خطة الحكومة المصرية بأطرافها غير معاكسة لرقى الأمة فى فروع الرقى المختلفة من حيث النّظامات والفضائل الاجتماعية وإنماء الكفاءات الاقتصادية والسياسية . لهذا الغرض نحاول تنبيه الأذهان إلى أى خطط الحكم أقرب للاتفاق مع ما تطلب هذه الأمة فى معالجة أمراضها الاجتماعية والوصول بالزمان إلى غرضها الكبير ، أخطة الجماعيّين ، أم خطة (الحريّين) . فقد دلتنا المشاهدات العامة على أن الحكم الماضى قد جعلنا عيالاً على الحكومة رعية لها معتمدين عليها فى كل إصلاح حتى فى التربية ، حتى فى حماية الفضائل الشخصية . نطلب منها كل شىء نطلب منها حتى التوسط فى أن تصلح بين فردين متخاصمين أو عائلتين مختلفتين ، ونظن هذه المداخلة من

الجريدة فى ٢٨ من سبتمبر سنة ١٩١٣ العددان ١٩٩٠ .

حقها و إصلاح ذات البين من واجباتها كأنما الحكومة هى لنا كل شىء ونحن لأنفسنا لا نملك نفعاً ولا ضررا . ولا شك فى أن السير على هذه القاعدة الاشتراكية يوصل حتماً إلى نتيجة سوداء ، هى قتل فكرة اهتمام الناس بأمورهم العامة إلا ما يكون من الانتقاد اللفظى لما يتم عمله من جانب الحكومة . وتحديد حركات الفرد فى دائرة ضيقة جداً هى دائرة أسوار داره . ولا غرابة إن تمشت هذه القاعدة وتسربت إلى داخل الدور أيضاً ، فتناط الحكومة بترتيب دار الفرد على ما تشاء لا على ما يشاء هو . نتطلب من الحكومة أن تحمى أطفالنا من جهل أمهاتهم وتسهر عليهم فتطعمهم بمادة الجدرى وتراقبهم فى الشوارع أن تدوسهم العربات . ثم تقوم هى بتربيتهم وتعليمهم فإذا رأينا فساداً فى الأخلاق ألقينا عليها مسئولية ذلك ، ثم إذا وجدنا الحركة العلمية فى البلاد بطيئة ، رميناها بسوء القصد أو سوء التدبير ثم نطلب إليها بعد ذلك أن توجد عملاً للشبان الذين لا يريدون اتخاذ الزراعة مهنة لهم . ثم نطلب إليها أن تنقى من غيطاننا دودة القطن وأن تجبرنا بالإكراه على زرع ثلث الأرض قطناً . نطلب منها أن تزرع هى لترينا كيف نزرع ونطلب منها ردم البرك التى حفرناها بأيدينا تحت دورنا فى القرى . نطلب منها كل شىء ولا نطلب من أنفسنا شيئاً .

ولا شك فى أن كل مسئولية تستدعى لصاحبها سلطة تكافئها . فإذا نحن تنازلنا عن واجباتنا لأنفسنا وألقيناها على عاتق الحكومة فإنما نحن بهذا العمل نفسه نتنازل عن جميع حقوقنا وحريتنا لنضعها بين يدى الحكومة ،

ولا يبقى لنا منها إلا ما يبقى للعبد أمام سيده أو للخادم المطيع أمام مخدومه القوى . نعمل ذلك ثم نطالب الحرية الشخصية للفرد . فما هى تلك الحرية إلا أن يحيي الفرد ويعمل كما يشاء بشرط أن لا يضر بالغير . ولست أدرى إلى أى بعد تقف حدود هذه المشيئة إذا كان للحكومة أن تجعل ميدان هذه المشيئة أضيق ما يكون !

قد تكون هذه الخطة مفهومة قليلة الضرر عند أمة حكومتها ديموقراطية (أى حكومة الشعب أو حكومة الأكثرية) ولكنها طريقة ما أكثر أضرارها فى أمة كأمتنا ليست فيها مشيئة الشعب هى مرجع الأمور . هذا المذهب الذى هو مذهب « الجماعيين » إذا استمر تنفيذه فى بلادنا على أنه خطة لحكومتنا يعوقنا كثيراً فيما نحاول من تكوين أفراد أحرار مسئولين ينهضون بالبلاد إلى طلبتها من الإرتقاء . لأن كل فرد سيعيش ويموت تحت وصاية القوى . وبعيد أن يستوى فى الرجل ملكاته وهو تحت الوصاية أو فى حظيرة الحجر . لا أظن أن فى هذا التعبير خفاء لأن كل قانون يكسب الحكومة حقاً أو رقابة ، فإنما هو يخسر الفرد من الحقوق ومن الحرية بمقدار ما أخذت الحكومة لنفسها . وكل مداخلة للحكومة فيما ليس لها أو فيما لا توجبه ضرورة النظام تعتبر ضغطاً على حرية الفرد وتضييقاً فى دائرة عمله . ونحن فى بلادنا أحوج ما نكون إلى مداواة الأمراض التى لحقت الأفراد من جراء الضغط عليهم . فإذا كان هذا المذهب مفيداً عند بعض الكتاب الاشتراكيين لبعض الأمم ، فإنه غير مفيد لنا . لأن من البلاد ما تمتع فيها

الفرد بحرية العمل فى حدود واسعة ، فقويت ملكاته ونبغ إلى حد أخل الموازنة بينه و بين من دونه فى الصفات حتى خيف على حياة الجماهير وسعادتهم من تسلط الأفراد القادرين ، فأراد الاشتراكيون أن يسووا بين الناس فيما يمكن التسوية فيه وهو الثروة ، وقسمة الثروة بينهم على مذهب (القسميين) أو أن يعيشوا متساوين على الشيوع كما هو مذهب (الروكيين) . . . الخ . ولا طريقة لتنفيذ هذه المذاهب إلا أن تكون الحكومة (حكومة الشعب) هى كل شىء و إرادة الفرد وحريته لا شىء . . . أما نحن فإنى لا أزال أكرر أننا أحوج ما نكون إلى تربية الفرد و إزالة العقبات من طريقه حتى تنقه نفسه من الضعف الذى أورثه إياه الحكم الماضى وليستكمل قسطه من القوة حتى يستطيع المزاحمة مع أفراد الأمم الأخرى . وعلى ذرارينا فى الأجيال المقبلة أن ينظروا بعد ذلك فيما إذا كانت المبادىء الاشتراكية هى اللازمة لجمعيتهم وقتئذ . فإن خطة الحكم يجب أن تتغير بتغير الزمان والمكان وطبائع السكان .

أما مذهب (الحريين) أو (الفرديين) فإنه يعتبر الحكومة ضرورة من الضرورات . يعتبرها كذلك أيا كان شكلها أرسطوقراطية (حكومة الأشراف) أو ديموقراطية (حكومة الشعب) أو حكومة فرد . ولهذا الاعتبار ينبغى أن يكون عمل الحكومة داخل دائرة محدودة بحدود الضرورة . فلا يكون على الحكومة إلا واجبات ثلاث : البوليس و إقامة العدل وحماية البلاد . وكل ما يخرج عن هذه الدائرة لا يحل لها المداخلة فيه.

ويعجبنا قول أحد كتاب الانجليز فى هذا الصدد إن الحكومة لم تدخل فى عمل خارج عن هذه الدائرة إلا أثبتت عدم كفاءتها له . مذهب معقول لأن الإنسان خلق حرا حرية غير محدودة ، فلا يكون حدُّها بضرر الغير إلا ضرورة من ضرورات الجمعية . وعلى ذلك فليس من الصواب التوسع فى فى تطبيق هذه الضرورة إلى حد ان يكون القسر هو الأصل الواسع وحرية الفرد هى الاستثناء الضيق . وإلا فما فائدة المرء من أن يعيش فى الجمعية إذا كان يخسر بالجمعية أعز ما وهب الله فى هذه الدنيا وهى الحرية . وماذا يكون المقابل الذى تعطيه الجمعية إذا هى سلبت منه كل حريته اعتماداً على أن هذا السلب إنما هو لمصلحة الجمعية . أظن أن هذا المقابل ليس شيئاً كثيراً لأن الأمثلة اليومية تدلنا على أن الجمعية لم تحم من القتل أولئك الأفراد الكثيرين الذين يقتلون ظلما وعدوانا فى بيوتهم وفى غيطانهم وفى الطرقات العمومية . سيقولون كلا إن الحكومة تجدُّ فى طلب القاتل وتعاقبه . فنقول هب أنها فعلت ذلك فماذا استفاد القتيل من ذلك العقاب ! ومن الأمثلة أن الحكومة أو الجمعية لم تحم مال جميع الأفراد الذين سَلَبَتْ من حريتهم ما سلبت . فسيقولون إن بوليسها يخف فى طلب السارق . هب أنها فعلت ذلك فما فائدة المسروق منه من وضع السارق فى الحبس مدة يعود بعدها إلى ارتكاب الجنايات . على أن إحصاء المحاكم يدل فى بلادنا على أن أكثر حوادث القتل لم يعاقب فيه القتيل . أما فى السرقات فما أظن أن البوليس رد إلى المجنى عليه ماسرق منه ولو فى واحدة من المائة .

فاذا كانت الحكومة أيا كان شكلها أعجز من أن تحمى حياة الفرد دائما وماله فى بعض الأحيان ، أفلا يكون من الغبن الفاحش أن تأخذ الحكومة بقوانينها من حرية الأفراد أكثر من القدر الذى توجبه الضرورة . ضرورة البوليس ، أو ضرورة إقامة العدل ، أو ضرورة الدفاع عن البلاد ! !

الفرد والجمعية من حيث القوانين طرفان متضادًا المنفعة . يجب التوفيق بينهما ولا توفيق الا التصالح أو التنازل من الجانبين ، ولا شىء يبرر ذلك إلا ضرورة الجمعية أى ضرورة النظام . فلا يجوز للحكومة ما دامت هى ضرورة ، أن تعمل عملا أو تشرع قانونا فيه معنى التسلط على الفرد إلا فى حدود الضرورة القصوى . خذ مثلا على ذلك بعث قانون المطبوعات . هب أن بعض الصحف تطرفت فى النصح إلى الدرجة المضرة بالجمعية، فما ذنب بقية أفراد الأمة يرمون بقانون يحد أعلا مظهر من مظاهر الحرية الشخصية وهى حرية القلم وحرية الرأى ؟ أظن أنه لم يكن ثمة ظل ضرورة يلجىء الحكومة إلى هذا القانون . لذلك يرجوا الذين يظنون بها الخير أن تلغيه اليوم وغداً . ومثلا آخر قانون الاتفاقات الجنائية. هب أن ثلاثة أو أكثر اتفقوا على ارتكاب جناية سياسية تهدد الحكومة فى وجودها . عاقبوهم بما شئتم. ولكن ما ذنب جميع أفراد الأمة يرمون بقانون الاتفاقات الجنائية من غير مسوغ . إن ضرورة النظام لا يكفى فيها مجرد توهم الحكومة أن رجالها فى خطر ، فتبالغ فى تشديد الخناق على حرية الأفراد حتى تحظر عليهم اليوم ما كان مباحاً لهم بالأمس . وتعاقبهم على مالم يكونوا يعاقبون عليه من غير ضرورة ظاهرة .

يبين مما نقول أننا نفضل مذهب (الحريين) أو (الفرديين) على مذهب (الجماعيين) الذين يضحون الفرد ومصلحته للمجموع من غير قيد ولا شرط ويعتبرون الفرد ليس له وجود ولا راحة وسعادة ، الا بوصف كونه جزءاً من المجموع . يقولون ذلك وينكرون المحسوس . والواقع أن لكلا المذهبين منافع ومضار ولكن مذهب الفرديين أنفع فى بلادنا فى الظروف الحاضرة من كل ما عداه . ولكننا مع ذلك لا نرى تطبيق هذا المذهب على إطلاقه . فإنه لايزال فى حال الأمة ما يدعو إلى أن تهتم الحكومة بالمداخلة فى بعض الأمور غير الداخلية فى واجباتها الثلاث المتقدمة مداخلة حث وإرشاد لا مداخلة حكم و إكراه . فان المداخلة من هذا النوع قد تبررها أيضا ضرورة علاج الأمة من الخمول الماضى العميق .

نقدم هذه المقدمات الطويلات لا لمجرد الانتصار لنظرية علمية على أخرى ، بل لأننا نشعر فى البلاد بتيار قوى من جانب الحكومة ومن جانب بعض الأفراد مآله قرب السير على مذهب (الجماعيين) فإنهم يطلبون من الحكومة التقنين والمداخلة الفعلية فى أمور لا تبررها الضرورة ، والحكومة تطاوع فى ذلك فتتدخل فيما تقل كلفته عليها وتكثر به سلطتها اجابة لطلب الأمة . ولكنهامع ذلك لا تجيب طلب الأمة فيما طلبت من الدستور . ومن المضحك فى هذا المقام أن نذكر السبب الذى أبدته الحكومة لتبرر به بعث قانون المطبوعات . السبب أن الجمعية العمومية كانت طلبته فى قديم الزمان . كأنها تقول يعز على الحكومة أن لا تخف لإجابة رغبة الجمعية العمومية

الممثلة للأمة فى تضييق الخناق على دائرة الحرية الشخصية التى هى أساس كل صلاح للامم ؟! للامة أن تطلب الاشراف على أعمال الحكومة وتجد فى هذا الطلب ولكننا نحن الأفراد نطالب من الحكومة — والحكومة فى بلادنا سمو الخديو والوزارة والجمعية التشريعية — أن لا تفرط فى التعدى على حريتنا بالإكثار من القوانين إلا فى حدود الضرورة وأن تعاوننا نحن الأفراد على أن نستكمل حظنا من القوة العملية بالكف عن المداخلة فى الشئون التى من شأنها أن تترك لعمل الأفراد مهما كان أثر المداخلة مفيداً لمصالحهم لأنه لا مصلحة للفرد تَعْدِلُ مصلحته من القوة والاستعداد للمزاحمة للحياة . مثال ذلك مداخلة الحكومة فى مراقبة حال الطلبة المصريين فى أوروبا . فإننا إذا رضينا بقيام الحكومة فى مصر بأمر التربية والتعليم وهما من عمل الأفراد ؛ وإذا رضينا بذلك اعتماداً على أن الأمة لا تزال محتاجة إلى مثل هذه المساعدة ، فلا يمكننا أن نفهم ما الذى يسوغ لنظارة المعارف المداخلة فى التوسط بين الرجل و بين ابنه الذى يتعلم فى أوربا على نفقته مداخلة لم يرضها الطرفان ، أو التوسط بين التلاميذ المصريين ومدارسهم ولم يطلب منها أحد الطرفين هذه المعونة . إذا رضينا أن الحكومة تكون تاجرة تمسك بين يديها السكة الحديد ، و إذا رضينا بذلك اعتماداً على أنه ليس فى البلاد شركة مصرية صرفة يمكنها أن تقوم بهذا العمل العظيم تشترى السكة وتديرها ، فإننا لا يعجبنا مثلا ما يشاع من أن الحكومة ستزرع على ذمتها أرضاً من خارج الزمام وأنها تبقى فى يدها أطيان

الدومين تستغلها وتزاحم الأفراد المزارعين فى الاستغلال . . . الخ

لذلك نكرر أن التيار الذى يتمشى الآن فى الحكومة وفى الأمة نخشى أن يفضى إلى جعل خطة الحكومة هى خطة التسلط على الأفراد والتضيق عليهم للمصلحة الموهومة للجمعية . وما مصلحة الجمعية إلا فى أن الحكومة وهى موجود ضرورة لا يحل لها أن تخرج فى قوانينها ولا فى تصرفاتها عما تلزمها به الضرورات احتراماً لحرية الأفراد ومصالحهم .

خبز السجون

هذا الخبز الضار لا ندرى أنكال فوق العقاب أريد بأهل السجون أم محض اقتصاد فى النفقات ! شكا منه أهل السجن وجيء لنا منه بعينة ذات لون قاتم وملمس خشن تقطع شهوة النهم وتعافها الكلاب ، فشكونا منه إلى أولى الأمر فيه ، ووعدنا من بضع سنين بتحسين حاله فخفت صوت الشكوى ثم زال . وكان الناس فى اطمئنان على صحة ذلك العدد الكبير من المسجونين ، فاذا بنا اليوم نسمع صوت الدكتور نيدل ترجمه رصيفتنا (البروجريه) إن خبز السجون سم قاتل : قالها الدكتور لا أخذا بظاهره المؤذى ولكن بعد بحث وتحليل . قولة تخلع قلوب الناس على أبنائهم وتفزع منها أهل العدل وأولو الرحمة بعباد الله فلا مناص للحكومة من تغييره فى الحال أو تحليله ونشر نتيجة التحليل .

ما سمعنا إلى اليوم فى حكم هذا القانون الذى بأيدينا أن الغذاء جزء العقاب يأكله الأثيم سما قاتلا كما يقول الدكتور . بل العقاب بين فى الحدود وفى حكم القاضى حبس بسيط ومع التشغيل . حبس بالأشغال الشاقة مؤقتاً أو مؤبداً . ومن عقوبات السجن الجلد وليس منها الطعام الضار . على ان عقوبة السجن لمن يتعدى حدوده لا لجميع المسجونين على السواء لذلك

الجريدة فى ٥ من اكتوبر سنة ١٩١٣ العدد ١٩٩٦

يستحيل الظن بأن هذا الخبز الذى يطعمه أهل السجن هو العذاب جزاء على سيئة المسىء . إلا أن تكون مصلحة السجون تزيد على حكم القاضى وليس لها إلا تنفيذه هو لا غيره بذاته ووصفه . وما يطعم السجين إلا من غالب قوت أهل البلد . كان يطعم السجناء خبز القمح ، فقالوا بل خبز الذرة هو غالب قوت أهل البلاد وما كان لنا أن نجعل الاجرام ميزة للمجرم على البرىء وفضلا للسجين يأكل خبز القمح على الطليق يكاد لا يطعم إلا خبز الذرة . قالت مصلحة السجون ذلك عند شكوانا الأولى . فقلنا تلك كلمة حق وانصاف لا نخال أحداً من غير أهل السجن إلا يقرها على ذلك . ولكن خبز الذرة ليس سما قاتلا ولا هو بلونه وملمسه وطعمه ردىء يعافه الجائع . فماذا عساه يكون هذا الخبز الجديد ؟!

حسب الانسانية عذابا علمها بأن العدل الذى يؤخذ به الناس ليس فى الحقيقة إلا الطريقة الممكنة للنظام وانه أشبه بالظلم منه بالعدل المطلق . وأنها تعرف أن من السجناء مظلوما حقيقاً بالتمتع بحريته ، ومن الطلقاء أثيما أولى به ظلمات السجون .

حسب الإنسانية عذاباً علمها بأن من الجناة عدداً كبيراً لا يجوز أن يحمل كل مسئولية جنائية ، وأن للانتقال الوراثى والبيئة ودوافع الطبيعة التى لا قبل لأحد بردها ، لكل أولئك معظم المسئولية على الجناية . ومع ذلك هى تعاقب الجانى كأنما هو حر فى تصرفاته يحمل وحده عدلا جميع نتائجها .

حسب الإنسانية ما هى فيه من القلق الدائم والشقاء المستمر ، فما كان

أغناها عن هذا القلق الجديد الذى سببته مصلحة السجون رجاء اقتصاد تافه فى النفقات أو تهاوناً فى معاملة المسجونين بالتى هى أدنى للرحمة والرفق ببنى الإنسان .

ليس بالحكومة من حاجة لأن نؤكد لها أن هذه التهمة هى أشنع ما رميت به حكومة فى الدنيا ، ونطلب إلى نظارة الداخلية أن تحقق تصرف مصلحة السجون وتنشر على الناس العناصر الداخلة فى تركيب هذا الخبز ليطمئنوا على ان الرفق والقانون كليهما آخذ نصيبه فى السجون .

من أجل ذلك نطلب الدستور

طلبنا الدستور ونطلبه لتكون الوزارة مسئولة عن تصرفاتها مسئولية ، ذات أثر فعلى أمام المجلس لتكون الأمة فى أمن على حقوقها وحريتها ، فلا ينفى أحد إلى السودان من اللبان أو من غير اللبان إلا بحكم قضائى بالأوضاع القانونية .

وطالما قيل عنا إننا نقول بسلطة الأمة لمجرد تقليد الأمم المتمدنة . نقول بذلك ونطلب الدستور لنتخذه زخرفا ولنرضى شهواتنا من العزة المجردة عن كل منفعة حقيقية يقولون ذلك ويقولون إن المصريين فى أمان الله ، لهم حكومة عادلة وإن كانت غير دستورية بالقانون . إلا أنها لفرط عدلها وتناهيها فى العفة وبعدها عن الاستبداد كالحكومة الدستورية أو أقوم سبيلا . فيها منافع الحكومة الدستورية وليس فيها أضرار البطء فى سير الأعمال ولا المشاغبات الحزبية التى تؤدى فى كثير من الظروف إلى ضرر البلاد . حكومة هى المثل الأعلى للحكومات لأن فيها شدة الحكومة المستبدة وعدل الحكومة النيابية ، فماذا ينقص المصريين إلا الفخفخة والمباراة بأنهم أمة ذات حكومة دستورية . وإلا فإن الأمة المصرية متمتعة فعلا بنتائج الدستور لها غنم الحكم العادل وليس عليها منه شيئاً من المسئولية .

الجريدة فى ٧ من يناير سنة ١٩١٤ العدد ٢٠٧٤

لو كان ذلك صحيحاً لرضينا بحالنا كارهين . فماذا يكون شأننا والأمثلة اليومية فى أعمال الحكومة لا تزيدنا إلا اقتناعاً بالحاجة إلى الدستور . نتخذه ، لا زينة فى الحياة ، ولكن مرقاة للتقدم وأماناً من الاستبداد .

ها نحن أولاء أمام تصرف من أحدث تصرفات الحكومة عهداً وأشدها أثراً فى الطمأنينة على الحرية الشخصية وادعاها إلى التظنن فى تطبيق القوانين . ذلك المثل هو نفى المسجونين إلى السودان من غير حكم النفى وفى غير حدود القانون .

لو أن السلطة الشرعية والسلطة الفعلية متفقتان على أن السودان جزء غير منفصل عن مصر وأنه لا فرق بين مديرية الخرطوم وبين مديرية أسوان ، وان عقد الاتفاق المبرم بين الحكومة المصرية وبين الحكومة الانجليزية باطل ، وأن السودان ليس وطناً خاصاً ومستعمرة بل هو إقليم من الأقاليم المصرية وجزء من الوطن المصرى تحت سلطة القانون المصرى . لو كان الأمر كذلك لما كان إبعاد المسجونين فيه نفياً لا تبيحه قوانين البلاد . ولكننا نحن أول المبررين لعمل الحكومة من هذا القبيل . فأما والاتفاق السودانى منفذ بين الحكومتين ، والسودان غير خاضع للقوانين المصرية ، فإنه لا يجوز اعتبار السودان جزءاً من مصر فيما يضرنا ، واعتباره منفصلا عن مصر فيما ينفعنا .

يضحكنا أن يرد على بعض الأذهان أن تصرف الحكومة هذا قد يعتبر سابقة تنفعنا هى ومثيلاتها يوم إقامة الدليل على أن السودان جزء من

مصر ! ! كلا إنه لا مصلحة للضعيف من مجاوزة الحق إلى ميدان القوة . فإن الحق هو قوة الضعيف ، فاذا جاوزه إلى غيره ، فإنما هو يجرد نفسه من كل سلاحه ، ليحارب القوة بالضعف المجرد .

ومهما كانت العيوب الأصلية فى اتفاق السودان ، فإن الواقع أن العمل جار عليه . فاذا كانت الحكومة المصرية توافقنا على أن فيه من العيوب القانونية ما يبطله وتعدل عن تنفيذه ، يصبح قولها مقبولا فى أن إبعاد المسجونين إلى السودان ليس فيه مجاوزة لحدود القانون ولا اعتداء على الحرية وحقوق الإنسان . ونحن نعيذ الحكومة من أن تعمد فى تبرير عملها هذا إلى التحدى بهذه النظرية لأنه لا يفسر فى البيئات المصرية إلا بأنه استخفاف بالرأى العام . وحكومتنا أعلى مقاما وأكثر بصيرة من أن تعرض نفسها إلى مثل هذه النتيجة .

وكل ما يقال فى الموضوع إن الحكومة تعجلت فى الأمر . وفى قدرتها أن ترجع أولئك المنفيين من السودان احتراما للقانون . أما نحن من جهتنا فنقول لو أن لنا دستوراً لما أمكن أن يقع من ذلك شيء .

ومن أجل ذلك نطلب الدستور .

حقوق الأمة

قد تجاوز الحكومة عندنا حدود القانون، لا حباً فى إذلال الشعب ولا إظهاراً لعظمتها واستهانتها به. ولكن لما يظهر لها من وجوه المنفعة العامة كأنها ترى أن المنفعة هى كل شىء وغير المنفعة لا شىء. صحيح أن منفعة الأمة بوجوهها المادية والمعنوية هى كل شىء؛ ولكن من هو الحَكَمُ مُرْضِى الحكومة فى تقدير منفعة الأمة؟ تلك هى المسألة وذلك هو الفرق بيننا وبين الذين يظنون أن حكومة المستبد العادل هى خير الحكومات.

نقول إن نظرية الاستبداد بالأمر على مبادىء العدل نظرية خيالية، لأنه لا يعرف التاريخ حكومة من هذا الصنف. بل كانت الحكومات المرضية كحكومة الخلفاء فى صدر الإسلام، بعيد عليها أن تكون مستبدة لأنها كانت خاضعة فى كل تصرفاتها الاجتماعية والسياسية لكتاب الله وسنة نبيه. ولا نعرف عن الخلفاء الراشدين أنهم تعدوا فى تصرفهم حدود الله ولا غمطوا حقوق الأمة ولا حقوق الأفراد المقررة فى الشريعة الغراء بحجة أنهم إنما يتعدون حدود الله لمصلحة الرعية، لأنه لا مصلحة للرعية من تعدى الحاكم حدود الشرع. وغير هذه من الحكومات المستبدة ما كانت عادلة. فما أظن مذهب (الاستبداد العادل) فى عقول أنصاره إلا أمنية

الجريدة فى ١٠ من يناير سنة ١٩١٤ العدد ٢٠٧٦.

يتمنونها لمثل أعلى من حكومة موحدة الكلمة قوية البطش بعيدة عن الشهوات الحزبية والفردية سريعة الحركة لا بطيئة كالحكومات النيابية . عادلة لا تنحرف عن جادة العقل أبداً . تصوروا هذا المثل الأعلى فلم يجدوا له صيغة إلا ما سموه (حكومة المستبد العادل) . وها نحن أولاء قد جربنا الاستبداد ورأينا تجارب الأمم فى الاستبداد وفى الحكومة النيابية ، فخرجنا من هذه الأمثلة نمقت الاستبداد ونحب الحرية ونود بكل شىء لو نخرج من حكومة الاستبداد إلى الحكومة النيابية أو حكومة الأمة . هذا هو الواقع من أمرنا ومن أمر كل الأمم . وبعيد أن نرجح ذلك المذهب التصورى الصرف على هذا المذهب، مذهب الحكومات النيابية التى أثبتت التجربة أنه أفضل طرائق الحكم .

على أن منافع الأمة ليست كلها منافع مادية . إنما الأمة أفراد ليست حياتهم فى الحقيقة إلا مشاعر . فهم فى الحكومة الاستبدادية فى شعور بالذل والعبودية يقبض الصدر ويحبس الملكات ويكره المرء فى عيشته . يكرهه فى عيشة ليست له ، فإنه إنما يعيش على خطر أن يصلب أو ينفى أو يجرد من ماله لما تراه الحكومة من منفعة الأمة فى الصلب أو النفى أو التجريد من المال . حياة جربت ، فكانت نتيجتها اللازمة جمود القرائح وفساد القلوب . فلو أننا قارنا حال الأمم المتمدنة تحت حكومات الاستبداد وتحت الحكومات النيابية ، لوجدنا أنها تحت الأولى كانت فى نوع من الجمود أكبر مظاهر الرقى فيها التقدم الصناعى لإرضاء شهوات الملوك

والحكام من الزينة والزخارف فى العمارات . أما تحت الحكومات النيابية فكان العقل البشرى قد فك من عقله فنشط يأتى بالمعجزات الواحدة تلو الأخرى . والواقع أننا لا نعرف سبباً جدياً لهذا الروح الجديدة التى تجلت على مدينتنا الحديثة فجعلت الإنسان ملكاً حقيقياً يسخر كل قوى الطبيعة لمنفعته حتى حقق خيال الكتاب السابقين . فإن كتاب العصور الأولى كانوا يظنون طيران المرء فى الهواء حلماً جميلاً وخيالاً عن الحقيقة بعيداً . ولكنه اليوم وما سبقه من المعجزات الحديثة حقائق راهنة .

وما السبب فى ذلك إلا الخلاص من الاستبداد والاستعاضة عنه بحكومات الحرية . فقدنا بالاستبداد ينابيع السرور التى من شأنها أن تنفجر فى النفس الإنسانية . وفقدنا به حرية العقل التى أتت للعالم بهذه المعجزات ثم تجىء بعد ذلك فى القرن العشرين ونسمح لنفوسنا أن يرد على خاطرنا الرجوع إلى الاستبداد على أى وجه كان ؟ !

نسوق هذا القول لبيان أن الحكومة الاستبدادية لا تستطيع بحال من الأحوال أن تشعر بمشاعر الأمة لتقدر منافعها . ولذلك فإنها مهما كانت بعيدة عن الهوى لا يكون أمرها فى التصرف إلا أنها تخلص من خطأ لتقع فى خطأ مثله .

بعيد علينا أن نتهم حكومتنا بشهوة الاستبداد وتجاوز حدود القوانين لإظهار عدم احترامها للرأى العام . ولكنها تفعل ذلك اعتقاداً منها — كجميع الحكومات الاستبدادية — بأنها انفردت بمعرفة منافعنا دوننا . وعلى هذا

النحو جرت فى إرسال الاليمانية إلى السودان وفى منع الموكب الذى كان يريد الطواف فى المدينة لمناسبة عيد الجلوس ، ويلقى خطباؤه الخطب فى الأحوال العامة . ولعل المنع كان مقروناً بالمجاملة فى المعاملة أو بإحلال الإرشاد والنصيحة محل الأمر والإكراه . ولكنه على كل حال منع من التمتع بحقوق الأفراد . حق الاجتماع والسير فى الشوارع العامة وحرية الخطابة فى جنينة الأزبكية . وذلك كله مجاوز لحدود القوانين .

ليس إرسال الليمانية ولا منع المظاهرة هو وحده الذى يخيفنا على حقوق الأمة . فإن هذه المجاوزة تكررت فى هذا الصيف الماضى . فشرعت الحكومة القانون النظامى من غير أن تأخذ رأى مجلس الشورى مجاوزة لحق الأمة الثابت بالقانون القديم . ثم أخذت تصدر القوانين بعد صيرورة القانون النظامى واجب التنفيذ ، فأنشأت نظارة الزراعة وأنشأت نظارة الأوقاف . كل ذلك من غير انتظار رأى الجمعية التشريعية . وذلك مجاوز أيضاً للقانون النظامى فلا تكون المسألة إلا مجاوزة تتبعها محاوزة . قولوا ما شئتم من أن تلك المجاوزة فى مصلحة الأمة ونحن مع أننا لا نعرف وجه هذه المصلحة ، نؤكد أنه لا يوجد للأمة فى الدنيا مصلحة تعادل مصلحتها من الحرية والمحافظة على حقوق الفرد وحقوق المجموع .

لذلك نرفع للحكومات النصيحة ونكرر الإلتماس بأن الأمة هى وحدها التى تعرف منافعها دون غيرها . وأنها مع ذلك لا ترى لنفسها منفعة ألزم لحياتها من الاحتفاظ بالحرية وسلامة حقوق الإنسان .

الكفاءة الاقتصادية

ليست حاجتنا من إنماء الكفاءات الموصلة إلى الاستقلال قاصرة على إنماء الكفاءة الأخلاقية والكفاءة السياسية ، بل لابد لمطلبنا من الرقى إنماء الكفاءة الاقصادية التى فى توفرها عزة الأمم وفى فقدها الذل وسوء الحال .

منذ فتح للأمة طريق الاقتصاد أى منذ إلغاء الالتزامات لم يثبت الفلاح المصرى فى أية طبقة من طبقاته الثلاث الفقيرة ومستورة الحال والغنية ، أنه يحفل كثيراً بمبادئ الاقتصاد أو أنه يحاسب نفسه حسابا عسيراً عندما تحضره شهوة المباراة فى عدد الأفدنة أو فى الإنفاق على عرس أو على مأتم أو على اكتتاب من اكتتابات الخير والشر ، أو فى الإدلاء بالمال إلى الحكام فى غرض مشروع أو غير مشروع . انه مبالغ فى التفاؤل بالخير . فهو لايحب أن يقيس حاصلات السنة الآتية على حاصلات السنة الماضية . ولا يحب أن يجعل قاعدة قياسه النظر الصحيح المرتكن إلى الحس . و يغفل عمداً أن يجعل لظرف السوء محلا من الملاحظة فى تقديره . كان يتزوج كلما تيسر له ذلك ولا يحفل بما سيفتح عليه تعدد الزوجات من النفقات ، كأنه اتخذ عند الزمان عهداً أن يدور دائما لمصلحته ، أو كأنما هو يصرف من تحت السجادة . فهو بذلك المثل الأعلى لمذهب المتفائلين . متفائل غال فى التفاؤل

الجريدة فى ١٧ من يناير سنة ١٩١٤ العدد ٢٠٧٩

إلى ما يكون أشبه بالغفلة منه بالإتكال على الله . الواجب عليه أن يقدر ويعمل و يتكل على الله، فهو لا يقدر و إن قدر يخطىء عمداً فى التقدير و يعمل إلى درجة محدودة و يجعل الاتكال يقوم مقام التقدير والعمل جميعاً ، لأنه أقل كلفة عليه وأسهل عذراً عندما يلوم نفسه أو يلومه غيره على ما فرط فى واجب الاقتصاد .

تلك هى إحدى المشخصات التى قد يمتاز بها الفلاح المصرى عن غيره من الفلاحين فى البلاد الأخرى . يقولون إن من أخص الرذائل في أهل الفلاحة الأنانية والبخل والحسد . والظاهر أن الفلاح المصرى برىء من هذه الرذائل إلى نقائضها أى إلى فضيلة كرم النفس وكرم اليد وعدم النظر إلى ما فى أيدى الناس من نعم الله . بل الظاهر أيضاً أنه بالغ حتى أسرف على نفسه فظلمها بعدم المبالاة وظلم قومه أيضاً فألقى البلاد تحت أعباء ثقيلة من الديون، لا فكاك لها منها إلا بعمل عظيم وزمن طويل .

ذلك الذى نسميه النقص فى الشعور بمسئولية الحياة الجديدة التى دخلنا فيها ، هو السبب الأول لهذه الضائقة الحائقة بالفلاحين ، بل هو السبب الأول للنتائج السيئة التى يجعلها المتطيرون البائسون علامات الخراب . ولكن المعتدلين فى النظر لا يرونها موجبة للقنوط بل موجبة لشدة الالتفات إلى إصلاح النظام الاقتصادى فى مصر ونشر المبادىء الاقتصادية والأمثلة الاقتصادية ، لنستطيع أن نستفيد فى حياتنا المدنية الجديدة من الثروة المالية القدر المناسب لما نستفيده من الثروة الأخلاقية والفنية والعلمية .

ليس من الغالين فى سبيل الاقتصاد من يقرن الكفاءة الاقتصادية بغيرها من الكفاءات الأخرى فى العناية والرعاية ويجعل العمل لها لازما لتربية الأمة بل هو ألزم من العناية بالكفاءات الأخرى . لأننا يجب أن نعيش قبل أن نكون علماء أو فنيين يجب أن نعيش قبل كل شئ . ولقد نرى بالمثل أن العلم يخدم الاقتصاد والفن يخدم الاقتصاد والسياسة لا تستعمل حيلة ولا تثير حربا إلا لتخدم الاقتصاد .

فعلى أى وجه نظرنا إلى الحركة الاقتصادية فى البلاد نجد أن العناية بنظامها فى عمومها والإرشاد إلى انمائها فى كل أجزائها ومظاهرها الجزئية، هى من أول الواجبات على كل جمعية تغذى نفسها بآمال الرقى وعزة الاستقلال .

على الحكومة أن تضع قواعد النظام الاقتصادى وعلى الأفراد الانتفاع بهذا النظام كل لمنفعته . ولقد يظهر على الحكومة أنها استعملت طرقا وقامت بمشروعات من شأنها تنظيم الحال الاقتصادية فى مصر، ولكن الطرق التى استعملتها والمشروعات التى شرعتها من بضعة عشر عاما إلى الآن ، لم تأت بفائدة أو على الأقل لم تأت بالفائدة المقصودة منها . فإن البنك الأهلى والبنك الزراعى لم يأتيا بالنتائج التى يأتى بها أمثالها فى البلاد الأخرى . والسبب فى ذلك راجع إلى أن هذين البنكين أجنبيان فى الحقيقة لا مميز بينهما و بين غيرهما إلا أنهما ممتازان عند الحكومة . ولم نجد من كليهما أو من أحدهما خدمة أداها للبلاد أكثر من الخدمات التى يؤديها أى بنك من البنوك الأخرى . كذلك قانون خمسة

الأفدنة . لم يأت بالفائدة المنتظرة ، بل ربما يستمر على الاتيان بنتيجة عكسية حتى يتم أمر انشاء النقابات الزراعية التى كان يجب إنشاؤها قبل قانون خمسة الأفدنة بزمن كاف . كذلك إنشاء صندوق التوفير والحلقات[1] . لأنها كلها كأنها وضعت لمعالجة الأعراض دون الداء الأصلى . ولا نجد من بين أعمال الحكومات عملا يفيد حقيقة فى الحال الاقتصادية إلا أعمال الرى والصرف . ولكن ذلك يستحيل أن يعد تنظيما لحالنا الاقتصادية .

نقول إن مداخلة الحكومة فى تنظيم الحال الاقتصادية قد لا يتفق تماماً مع مذهب الحرية .ولكننا نبهنا إلى ذلك بأنه من غير الممكن أو على الأقل من الصعب أن ينفذ مذهب من مذاهب الحكم برمته من غير استثناء . على أنه فى بلادنا التى هى حديثة العهد بالنهضة الجديدة يجب أن تأخذ الحكومة على عاتقها تشجيع الحال الاقتصادية وإنماء الكفاءة الاقتصادية بحال تتفق فى مظاهرها مع روح الحرية وهذا ميسور مجرب فى كثير من البلاد .

ولا شك عندنا فى أن الحكومة إذا أرادت معالجة الحال الاقتصادية من أصولها ، عمدت الى تشجيع إنشاء بنك مصر والنقابات الزراعية ، وذلك هو الحجر الأول فى النظام الاقتصادى المطلوب .

---

(١) أسواق يباع فيها القطن

النظام الاقتصادى

الفلاح فى ضيق شديد وحاجة مستمرة للاقتراض . والوسطاء والبنوك الصغرى وبقية الشركات ذوات رؤوس الأموال الوهمية تلعب فى السوق بثقة البنوك الكبرى وبأموال الناس

والبنوك الكبرى تقبض يدها خشية أن تقع فيما وقعت فيه من الخسائر التى جرتها عليها حوادث الافلاس المتتالية . فاتسع المجال لصغار المرابين فى القرى .

ذلك هو نظامنا الاقتصادى إن صح أن تسمى الفوضى الاقتصادية نظاماً . إنها نظام فى الجملة عند عدم النظام .

ليست الحكومة وحدها هى المسئولة عن هذه الفوضى ، لأن عقبة الامتيازات الأجنبية مانعة من توحيد النظام الاقتصادى فى مصر على طريقة تكفل مراقبة السوق مراقبة فعلية وضرب المثل العنيف بعقاب الذين يأكلون أموال الناس ويلعبون بثقة البنوك ، وأسهل ما عليهم آخر الأمر أن يقدموا دفاترهم ويشهروا إفلاسهم . ومن الصعب أن يوضع فى مصر نظام اقتصادى يكفل حياطة السوق من الخيانة حياطة تامة ، إلا بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية وتوحيد سلطة القضاء التى إليها المرجع فى جميع الاحوال

الجريدة فى ٤ من يناير سنة ١٩١٤ العدد ٢٠٨٠

غير أن عقبة الامتيازات ليست هى العلة الوحيدة للفوضى الاقتصادية، بل قد تكون الامتيازات فى كثير من الأحيان هى العامل الأول فى الوقت الحاضر لثقة الماليين الأوربيين الذين تشتغل أموالهم فى مصر . تلك الثقة التى كان من شأنها أن تكون سعداً على مصر والمصريين ، لو أننا أحسنا التصرف وراعينا قواعد الاقتصاد واستطعنا أن نتق شر الوسطاء والبنوك الصغيرة . ليست عقبة الأمتيازات مانعة من إيجاد نظام اقتصادى إن لم يكن كاملا ، فليكن مخففاً للفوضى الاقتصادية كافلة للفلاح أن يستدين بفائدة معقولة فى فصل العسر استدانة مناسبة لحاله من الثروة حتى لا يقع فى الإسراف والفقر المستديم .

يتوقف النظام الاقتصادى المحلى على استعداد من جانب الفلاحين و إرادة صحيحة من جانب الحكومة لحمايتهم ، بشرط أن تكون هذه الإرادة خالصة من كل الاعتبارات التى خالطتها فى الماضى عند تفكير الحكومة فى إنشاء بنوك أهلية يكون لها من الامتياز ما للبنوك الأهليه فى البلاد المتمدنة ، وعليها من الواجبات ما على تلك البنوك .

أما استعداد الفلاحين للانتفاع من النظام الاقتصادى ، فذلك رهن بالتربية الاقتصادية . وأفضل أنواعها أثراً فى بلادنا هو النقابات الزراعية الحرة التى ليس للحكومة فى أمرها إلا حمايتها وتشجيعها من غير أن تكون تابعة للحكومة تبعية قريبة . لأن النقابة إذا كانت تحت رئاسة المدير أو المأمور يصعب جداً أن تأتى بالغرض المقصود منها . تتعطل فيها همة

الأعضاء، ويقتل فيها روح الاستقلال ويتطرق إليها من كل ناحية أغراض المحسوبية ويصبح الإشتراك فى رأس مال النقابة أشبه بضريبة لا يأتيها الشريك الا كارهاً ولا يدفع من ماله لها الا من يكون له حاجة يبغى قضاءها بسلطة الحاكم الإدارى، وتكون النقابة بذلك بؤرة جديدة لإفساد الأخلاق كبقية الاكتتابات التى يقوم بها الحكام الإداريون. وفوق ذلك فإن الحاكم الإدارى خلو فى الغالب عن المعلومات الإقتصادية، ولكنه بوصف أنه حاكم يجب أن يطاع أمره وينفذ رأيه. نقابات من هذا النوع أولى بها أن لا تكون. إنما تنفعنا النقابات الحرة التى يقوم بها الناس بأنفسهم لا بأمر المدير، ويديرونها بأنفسهم تبعاً للنظام المرسوم والقانون المشروع لابواسطة المدير، وكل ما على الحكومة الإرشاد والتضحية وتسهيل السبل لهذه النقابات فى معاملة البنك. فإن كانت المراقبة لازمة فلتكن على الحسابات بمعرفة العمال الماليين لا الحكام الاداريين. هذا النوع من النقابات هو وحده الذى يقوم بأمر التربية الاقتصادية العملية ويجعل الفلاحين مستعدين للانتفاع ببقية النظامات الاقتصادية فى البلاد.

أشرنا إلى إرادة الحكومة إرادة صحيحة خير الفلاحين من الجهة الاقتصادية، ونعنى بالإرادة الصحيحة أن يكون عملها كله أو جله موجها لمصلحة الفلاح غير ملحوظ فيه ترويج مصالح أرباب الأموال فى البنوك التى اعتبرتها وطنية، وليس فيها من الوطنية إلا الإسم المجرد. فلو أن الحكومة أرادت أن تجعل للمصريين صوتاً فى السوق المالية فى بلادهم لاستعاضت

بالاكتتابات التى يقوم بها عمالها كل يوم بطريق التوريط والتجبية وشبه الاكراه لمشروعات ما أنزل الله بها من سلطان ، باكتتاب حرٍّ عام تحت حمايتها لإنشاء بنك وطنى تعطيه من الأمتيازات ما أعطت للبنك الأهلى وللبنك الزراعى ، ليكون هو المشجع للنقابات الزراعية والمشروعات الاقتصادية الوطنية . ولم يفت الوقت على ذلك . فان الحكومة الحاضرة تستطيع أن تصحح خطأ الحكومة الماضية ولعلها فاعلة ، لأنها ستعرض على الجمعية التشريعية قانون النقابات الزراعية عند افتتاحها . خطوة حسنة فى سبيل الإصلاح ، ولكنها لا تتم هذه الخطوة ولا تأتى بالمقصود منها الا إذا قرنتها الحكومة بالمساعدة الفعلية لإنشاء بنك مصرى بالمعنى الصحيح . وفى هذا المقام نصرح بأن كثيراً من أولى الأموال فى مصر مستعدون تمام الاستعداد لتنفيذ قرار « المؤتمر المصرى » والقيام بإنشاء البنك فى حجر الحكومة وتحت إشرافها ومساعدتها . وإنا نسارع إلى التصريح بأن البنوك الكبرى فى مصر تستقبل هذا المشروع بعين الرضى وتساعده . فقد حادثنا بعض مديرى أكبر البنوك فى مصر فى هذا المشروع الذى تحلم البلاد بتحقيقه من أكثر من ثلاثين عاماً ، فأظهروا لنا استعداداً تاماً لمساعدة المشروع مادام حقيقاً بالثقة . والواقع أن مصر لا تزال قطراً بكراً من حيث الاستغلال تحتمل المزاحمة المالية فى سوقها عشرات من البنوك الجديدة ، بل لا يزال ينقصها المال اللازم لإحياء الأرض الموات وتجفيف المستنقعات والبحيرات وإعدادها للزراعة واستخراج ما فى بطن الأرض الجبلية من كنوز الرصاص

والنحاس والبترول . وكل هذه المشروعات لا تتحقق الا بأموال البنوك .
فالقول بأن المزاحمة المالية لا تمكن بنكا مصرياً وطنياً برؤس أموال كلها أو جلها مصرية من الوجود والبقاء ، قول لغو لا محل له من الاعتبار ولا يتوقف هذا المشروع إلا على الشروع فيه تحت حماية الحكومة و بمساعدتها .

إنا إذا شرعنا فى إنشاء البنك الوطنى والنقابات الزراعية ، أمكننا أن نخفف وطأة الفوضى الحاصلة فى مصر وأن نوجد فى البلاد حركة اقتصادية ذاتية يمكن تنظيمها بغاية السهولة .

وفاة فتحى زغلول باشا

بلونا من موت الأصدقاء والأحباب ومن فقد العلماء والنبغاء، بلونا من ذلك الضربة على الضربة، وذقنا طعوم الحسرات الحسرة تلو الحسرة، وتجرعنا عليه الصبر بالكاس الكبير وبالصغير، فما أفاد التمرس ولا أجدى الاعتياد . ولا نزال نلقى المصيبة ينخلع لها القلب وتبكى لها العين وتجزع لها النفس بأكثر من أولى المصائب وباكورة الأحزان . فلا ندرى أرقت عواطفنا لما جربت من لوعات الأسى وحسرات الأسف أم لم يفد النفس اقترانها بالمصائب ولم يغن عنها وقت الشدة ما تجرعت من كؤوس الصبر ! ! شأننا فى الحياة هو هذا . «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص» تنزل بنا النازلة وكلنا يجزع خياله من تصورها . وكلنا قائل إذا وقعت :

فليت فمى إن شام منّى تبسمى   فم الطعنة النجلاء تدمى بلامس

ومع ذلك يستوى الصابر والجازع وتأخذ الحياة مجراها .

لا لبيد بأربد مات حزنا   وسلت عن شقيقها الخنساء

ذلك شأننا نحن الأحياء فى أمر عواطفنا . أسف مبرح وبؤس يقع على بؤس، كأنه قد كتب علينا أن ندفن بأيدينا أصدقاءنا ومحل عطفنا وأهل ثقتنا ومعقد آمالنا الواحد تلو الآخر، فمتى آخر هذه الحال ! آخرها يوم الخروج من

الجريدة فى ٢٨ من مارس سنة ١٩١٤ العدد ٢١٤٣

دار ما سرنا منها قدر ما أحزننا فيها . ولا تحقق فيها خير نرجوه على نسبة ما وقع من شر نتوقعه . ذلك هو

ما لَقِينا من غدر دنيا فلا كا نت ولا كان أخذها والعطاء

أيها الصديق :

لم يملك أصدقاؤك من دون الله لك فداء ، إلا الدموع الحارة . لو رأيتهم — يا فتحى — أمس حول قبرك لرأيت ثم معنى الحزن العميق يتجسم فى وجوه واجمة عليها غبرة وعيون شاخصة غارقة أحداقها فى دموعها والسن معقودة ارتج عليها من هول الموقف . وأى موقف أكبر هولا من موقف صديق ينزل صديقه بيده فى قبر سحيق يودعه تحت الجنادل فيفارقه الفراق الأبدى الذى ليس فيه رجاء . أى موقف أقسى على النفوس من موقف الوداع لراحل لا أمل فى رجوعه . دفنوك بأيديهم ودفنوا معك لذة الصداقة. تلك اللذة التى كان ينهل منها مجالسك ومحادثك ومماشيك . دفنوا ذلك الصفاء الذى كان يتجلى على مجالسك . ودَّعوك فودعوا معك أعز ما عندهم وهو الصــداقة . ذلك لم يغن شيئاً إلا ذكرى تبقى لك فى قلوب أصحابك التى كانت مغرساً طيباً للوفاء . رحمة الله عليك فكم كنت المثل الصالح للصديق ، والصديق قليل .

أيها العالم العامل :

لقد كنت فى الربيع الماضى على المنابر والصحف ، نكرم ذاتك ونتوج مؤلفاتك ونعلن فضلك ، فما دار الحول حتى جئنا ننعى وفاءك وأنت فى

(٨)

الحالين كبير . إن مظاهر الإعتراف بفضلك التى شهدتها بنظرك ليست بأكبر مظاهر الجلال التى قام بها من يبكونك لمقامك العلمى والعملى .

جاءه القدر المحتوم فنكست الأعلام الخافقة على ربوع هليو بوليس وسرت فى الناس جميعــاً روح أسف هادئة تظهر على وجوههم بسكون عميق . شأن الناس إذا نزلت بهم مصيبة عامة . كذلك كانت مصيبة مصر فى نابغتها وفقيد العلم والارتقاء فيها حزن فاتر، لايشبه حزن أصدقائه الجازعين، ولكنه أشمل منه أثراً وأعلى منه مقاماً . لكل امرئ أصدقاء يبكونه، وليس كل عالم يعتبر موته مصيبة عامة .

جىء بجنازته إلى القاهرة فشيعت من بيت أخيه الأسيف صاحب السعادة سعد باشا زغلول . شيعت بما يتفق مع مكانته العلمية وآثاره العملية ومشى فيها كل الرجال الرسميين ورجال الأمة وأهل العلم والأدب فكان هذا الموكب من أكبر ما وجد فى مصر . ولكن فتحى باشا له هذه الخصوصية ، أن فضله أشهر من أن تدل عليه حفاوة الناس وآثاره أبين من أن يكون تشييع العلماء والجنازة برهاناً على أنه من العلم و بيئة العلماء .

كان فتحى باشا حديد الفهم يتوقد ذكاؤه نوراً تضرب به بيننا الأمثال — بليغ العبارة حتى أنك لو كتبت عنه ما يقول فى مجلسه عن أى موضوع من الموضوعات لكان ما كتبت درساً من دروس الإنشاء وقطعة من قطع البيان . فصيح اللسان يتكلم الساعات الطوال ارتجالا كلاماً ممتعاً لا يمل ولا يمل ، نقاداً لا تفوته فائتة ولا يخدع على نظره الصحيح ، غزير المادة فى

علمه الخاص وفى العام . له ذوق صاف فلم يلهه الاشتغال بالعلم والتأليف عن تعرف الجمال فيما يقع عليه نظره من الأشياء كأنه من أهل الفنون الجميلة كما كان على علمه من أكابر الأدباء . له عقل راجح . عاشرته زماناً غير قليل ، فما علمت لسانه يسبق علمه ، ولا علمه يسبق عقله .

وأما آثاره العلمية فلا حاجة بها لأن تذكر بعد أن توجت فى مجلس حافل لم يبق فى البلاد أحد من أهل العلم إلا شهده . وأما شأنه العملى فإنه كان فى الحكومة واضع المشروعات والمدخر لحل المشكلات ، وكان بمجموع مزاياه وفواضله أحق الناس بأن يسمى النابغة على التحقيق .

أيها النابغة :

نم فى قبرك آمناً مطمئناً فإنك قد قمت بالواجب عليك فى خدمة وطنك وخدمة العلم . نم سعيداً فإن وراءك من أهل بيئتك ومن اهتدوا بهديك من يسيرون على سننك الاجتماعية وينفذون وصيتك الأخيرة — تلك الوصية التى أوصيت بها العلماء والفضلاء والوجهاء من قومك ، تلك الوصية التى أوصيت بها على منبر الجامعة يوم تتويج كتبك فبلغت بها قلوب الناس جميعاً إذ قلت لهم :

« علموا الأمة ، علموا الأمة علموا الأمة » انهم قد سمعوا ووعوا ، وهم يعملون كما تقول . فلئن فاتك أيها النابغة العمر الطويل ، فما فاتك المجد الأثيل ، ولئن قصرت حياتك عن إدراك ثمرة جهادك فإن أهل بيئتك سيتممون عملك . فنم فى سلام الله ورحمته . عزى الله قومك على فقدك خير العزاء .

وداع الوزارة

قد يكون اليوم هو آخر عهد الوزارة السعيدية[1] بالحكم. إن لم يكن هذا هو الحق فى الواقع، فهو على الأقل الحق فى أمانينا . ليس بأمانينا أن تسقط الوزارة، ولكن ذلك لا يمنع من أن البلاد قد شبعت منها ومن أعمالها وتلقت خبر سقوطها بالارتياح سواء فى ذلك خصومها وأنصارها ومن هم فى شأنها على الحياد التام . تستغفر المروءة أن يكون قولنا هذا تشفياً فى أشخاص الوزراء ، فإنا نعد من بينهم كثيراً من أصحابنا ومحل جاذبيتنا واحترامنا . نستغفر الرفعة للوزراء أن يكون سقوطهم مصيبة عليهم يألمون لها من جهة ما فيها من قطع المرتبات الكبيرة . كلا . إن وزراءنا يعلمون أن المناصب ضرائب يدفعها الأكفاء وتكاليف يقوم بأعبائها الأصلحون . وأنها تقليد إلى زمن محدود يستعمله الوزير فى تنفيذ المبادىء التى يراها صالحة لرقى البلاد .

وما هى تخليد يصح اعتبارها مورداً من موارد الرزق ، فلا يهم الوزير الشريف من أمر سقوطه إلا الحسرة على عدم اتمام ما يكون قد بدأ فيه من المشروعات النافعة للأمة لا لشخصه ، وما يخشى أن يفوت الناس من المنافع إذا لم يخلفه من يستمر على تحقيق مبادئه . وزراؤنا يعلمون ذلك كله

---

(١) محمد سعيد باشا   الجريدة فى أول إبريل سنة ١٩١٤ العدد ٢١٤٧

على الرغم مما شاع عن أحدهم أنه كان يقول حين تكلم معه زملاؤه فى أمر الاستقالة : أنا ثابت فى مركزى ومحتفظ « بحقوقى » فلا أستقيل مع المستقيلين ، كأن الوزارة حق له لا واجب عليه وكأنما هو مستعد لأن يشتغل مع كل رئيس بصرف النظر عن اختلاف المشارب أو تباين المبادىء . ذلك لا يهم . لكن المهم هو أن يشتغل بأية طريقة والسلام . على الرغم من ذلك فإن الواجب علينا فى حق وزرائنا الأماثل أن نعتبرهم غير مستائين من سقوط الوزارة سقوطاً كلياً أو بعضياً . فلا يكون هناك أوفى معنى لأن يحمل ما نكتبه فى هذا الشأن على الاشتفاء أو الشماتة ، فإن كليهما لا يكون إلا من الأعداء ولا نحسب منهم إلا معارف وأصدقاء فما يكون قولنا إلا وارداً على الوزارة باعتبار أن لها شخصية متميزة عن شخصية أفراد الوزراء ولها خطة مرسومة طالما أفضى بعض الوزراء فى مجالسهم بأنها خطة غير مفيدة لمصلحة البلاد . ولكنهم مع ذلك لم يستقيلوا ! لم يستقيلوا لأنهم على ما يقال لا يعرفون فى البلاد اكفأ منهم أو بعبارة أقل ادعاء ، لا يظنون أن السلطات ترضى باستيزار الأشخاص الذين هم اكفأ منهم . فهم ببقائهم يخدمون البلاد . يخدمونها خدمة سلبية بقطع الطريق على من هم أقل منهم كفاءة . ومهما تكن الخدمة السلبية عديمة القيمة ، فأنها مع ذلك — على ما يقال — كانت هى وحدها التى تربط النظار بمراكزهم دون غيرها من بقية الاعتبارات الشخصية . ومع ذلك فإن الأمة لم يبن عليها أنها أقامت وزناً لهذه الخدمة ولا اعترفت بفضل الوزارة ، فهى أسعد ماتكون

أن ترى هذه الوزارة تسقط من أساسها وتخلفها غيرها . كما يكون من حال المرء يرجو من صاحبه الصلاح ، والإصلاح ، ثم يرجو ثم يؤمل ثم يتمنى ثم يقنط بعد ذلك و يأخذه الملل . كذلك ملت الأمة هذه الوزارة .

ألا يكون الحال أن الأمة تحل كل وزارة من الوزارات تفرح لسقوطها من غير أن تتدبر فى أمر من يليها ، كأنما هى تفضل التغيير لا لنفع فيه ولكن حباً فى التغيير .

قد يكون من ذلك شيء . ولكن الواقع هو أن الوزارة الحالية كانت سيئة الطالع. سيئة الطالع إلى غاية النحس. نصبت فى ظروف صعبة محزنة . فكانت بذلك وزارة ضرورة أو وزارة وقتية ، ولكن استعددادها لاعتناق كل المبادى والسير فى كل الخطط والتفانى فى الاتفاق مع كل قوى لمصلحة البلاد وتسليم أمرها وأعمالها لكل من يخدم البلاد بصرف النظر عن الفكرة فى أى برنامج يجب اتباعه ، والتصريح بأنها تقصر همها على اكتشاف وسائل الإصلاح : كل ذلك أطال بقاءها وثبت مركزها إلى هذا اليوم . ولو كان عمل الوزارة قاصراً على ذلك لخفت على الأمة ريحها ولما ثقل عليها وجودها وألمت استمرارها وملت عشرتها واستقبلت اخبار سقوطها بالدعوات الصالحات لولاة الأمور . ولكن الأمة والسلطتين حين التفتوا جميعاً إلى تاريخ أربع السنين الماضيات ، رأوا أن ما يجرى فى البلاد هو غير ما يرضى الجميع . فإن السلطة لم تأمر بالمحسوبية ولم تأمر بانتشار الرشوة فى الإدارات من أقصى البلاد إلى أقصاها . حاشاً أولى الأمر أن

لا يجدوا كل الوجد على إفساد أخلاق الأمة إفساداً يتعذر عليها إصلاحه إلا فى زمان بعيد . ومهما يكن من بعد أشخاص وزرائنا المحترمين على مقارفة هذه الآثام أو الرضى بها ، فإن الوزارة دون غيرها هى المسئولة عن كل فساد ويقع فى مدتها من الموظفين التابعين لها ومن أعوانها وأنصارها ، ولو افترضت براءتها إلى حد الجهل المطبق بما يقع من الحودث فى البلاد . فإن الرأى العام والسلطة كليهما ليست محكمة من المحاكم النظامية التى تصوغ الآثام صيغاً محدودة وتطلب على كل منها دليلا قضائياً خارجاً عما جاء القاضى بطريق علمه الذاتى . كلا إنهما ليسا كذلك ، ولكن كليهما يحكم على الوزارة بنتائج الرقى أو الانحطاط الذى وقع فى البلاد مدة ولايتها الأحكام .

فإذا خاب فى الوزارة أمل السلطة العليا التى تنصبها ، فلم تستطع تنفيذ ميولها الشريفة ومقاصدها الوطنية ، ولم تستطع إعلاء شأن الحكومة وتحرير مشروعاتها القانونية فى الجمعية التشريعية انعدمت منفعة الوزارة وكان سقوطها واجباً .

وإذا انقطعت آمال الرأى العام من الوزارة فى تأييد كلمة الحق والعدل ونشر راية الأمن على رؤوس الأفراد وحماية مصالح الأمة ، أو رأى الرأى العام أن عهد الوزارة مملوء بالجرائم على الأعراض والأنفس والأموال . واتسع ميدان الرشوة للحكام وملاءم التغرض والمحسوبية . إذا رأى الرأى العام ذلك ، ثقل عليه احتمال الوزارة وصفق لسقوطها تصفيقاً .

كليات طبيعية يلزمنا الواجب أن نذكرها . نذكرها على مضض ، ولكن

الحق أحق أن يقال ويتبع . وإن كان احترام الوزارة والأسف على مافرطت يأخذ منا كل مأخذ على أن الإدارة فى مصر صارت إلى أبعد مما نشير إليه وشكوى الناس فى مجالسهم الخصوصية أدهى من ذلك وأمر .

لا يهمنا أن تلى الحكم بعد سقوط الوزارة الحاضرة وزارة زيد أو وزارة عمرو . ولكن الذى يهم البلاد أن تعتقد بالمثل الحسى أن السلطة العليا لا تسمح بالسكوت على تأخير البلاد فى حالها الأخلاقى ولا على أن تكون الوزارة كل عملها — كما يقال — اكتشاف وسائل الاصلاح وأن تبقى الوزاره هذه المدة الطويلة دون أن يكون لها مشروع واحد ينسب إليها دون سواها ، إلا مشروع المؤامرات أو اكتشاف المؤامرات !

يهمنا أن تأتى وزارة مطلوبة للولاية لا طالبة لها ، ذات مركز أعلى من مركز اكتشاف وسائل الإصلاح . وزارة تؤيد حرية الشعب لا تقصص ريشها ولا تطعنها فى قلبها . تعمل لمصلحة المحكومين ، ذات برنامج معين وخطط معروفة . تأخذها العزة بالاستقالة قبل أن تغلب على أمرها وتعيين الأفراد والمجاميع على استكمال حظوظها من الرقى المدنى بهدوء وسكينة فلا ينجم عن أعمالها مؤامرات صادقة أو كاذبة ولا تحتاج فى حمايتها إلى قوانين استثنائية تذهب بمظاهر الحرية وتشوه جمال الاصلاح الذى يزاوله المصلحون. وزارة ذات روح عامة مؤتلفة الأجزاء متضامنه الوزراء . لا يسعى أحدهم بالآخر إلى السلطة ولا يصك بعضهم صدره للسلطة ، لينفرد بإتيان عمل من وراء الآخرين . ووزراء لا يقبل أحدهم الوزارة إلا بعد التدبر والحساب

و بعد أن يعرف شركاءه فى المسئولية ويرضى بهم . فإن الوزير هو ذلك الذى يعرف أن يقيس قواه لحمل أعباء الأمة على كاهله لا الذى سرعان ما يجرى الطمع المتواضع إلى أن يقدر ما يربحه فى المنصب .

إلا أن الوزارة غرم لا غنم . أنها مفقدة الصديق ومضرب العدو وكد الضمير وخسارة الاسم . فمن قبل الوزارة لمال يكسبه ، فما أقل حسابه ، أو لجاه يحصله ، فقد فات زمن الجاه . ومن قبل الوزارة وأعد لها عدتها من الكفاءة والاستقلال لمجد مخلد فى خدمة أوطانه ، فذلك وحده هو الوزير ضحى ماله ووقته وحريته ولذته لمنفعة قومه و بلاده .

على أننا من جهة أخرى يعز علينا أن وزارة سعيد باشا التى استقبلناها بقليل من التفاؤل وكثير من الجاذبية ، لم تنجح فى أداء وظيفتها فلم توفق إلى إرضاء مصلحة البلاد ولا إلى إرضاء الأمة ولا السلطة التى نصبتها . نأسف لذلك لأن الوزارة مؤلفة من أبناء مصر وليس فشلهم فى السياسه يشرفنا كثيراً ، ونحن أمة ناهضة كل مثل من أمثلة الفشل يتخذ حجة علينا لا حجة لنا . فلسنا من هذه الجهة كغيرنا من الأمم الراقية التى تعد من يصلح فيها للوزارة بالمئين لا بالعشرات . نأسف لذلك و يرضينا أن نودع الوزارة الحاضرة لنستقبل الوزارة الآتية بالآمال الكبار . فإن كانت الوزارة الفهمية فأهلا وسهلا وحباً وكرامة . فإن ذلك الشيخ المحترم يكاد يكون فى مصر الرجل الوحيد الذى لا فائدة لى من الوزارة . فلا يكون قبوله لها الا لمحض نفع البلاد . ولقد أظهر

مصطفى فهمى باشا فى المفاوضات على ما يتغافله الثقات من رفعة الأخلاق وعلو المكانة ما يجعل الأمة تستبشر خيراً بوزارته وما يجعل السلطة ترى نهائياً أنه هو الرجل الأول اللازم للحالة الحاضرة ، والقادر بنفوذه الأدبى على إصلاح ما فسد من أحوال البلاد .

تأبين أحمد فتحى زغلول باشا

أيها السادة : إن أحمد فتحى باشا زغلول هو أصغر أنجال المرحوم الشيخ ابراهيم زغلول من أعيان إبيانه . ولد فى تلك القرية فى ٤ ربيع الأول سنة ١٢٧٩ هـ . مات أبوه رحمه الله إذ كان رضيعاً وكان شقيقه سعد زغلول فطيما خلفهما أبوهما فى حضانة والدتهما التى هى إحدى عقائل عائلة بركات الشهيرة بالغربية، وكانت وقت وفاة زوجها لا يتجاز عمرها العشرين . فقامت على ولديها ووقفت نفسها على تربيتهما تحت إشرف أخيهما الكبير لأبيهما المرحوم الشناوى أفندى زغلول الذى عنى بتعليمهما على أحسن ما تعلم به أبناء الأعيان . تعلم فتح الله الصغير فى كتاب البلد ثم فى مدرسة رشيد ثم المدرسة التجهيزية ثم فى مدرسة الألسن ، فاتفق أن زارها المرحوم أحمد خيرى باشا ناظر المعارف العمومية ، فأعجب بذكاء الشاب فتح الله صبرى وأعطاه اسم أحمد ، ونحت من « فتح الله » فتحى ، وأصدر أمراً رسمياً إلى المدرسة بتسميته أحمد فتحى وبأن يرد إليه ما دفع من المصاريف وباعتباره طالباً مجانياً . فلما كانت ١٨٨٤ أرسلته نظارة المعارف إلى فرنسا لدرس الحقوق فحصل على شهادة الليسانس ورجع سنة ١٨٨٧ . وظف بقلم قضايا الحكومة ثم رئيساً لنيابة أسيوط ثم رئيساً لنيابة اسكندرية ثم مفتشاً بلجنة

الجريدة فى ٩ من مايو سنة ١٩١٤ العدد ٢١٧٨

المراقبة فرئيساً لمحكمة الزقازيق ثم رئيساً لمحكمة مصر ثم وكيلا لنظارة الحقانية ، وظيفته الأخيرة التى مات وهو قائم بها .

كان فتحى باشا كما سمعتم اليوم وقبل اليوم وكما قرأتم فى التقارير الرسمية مثال الموظف الفانى فى الاشتغال بأداء واجباته القائم بعمله وعمل غيره أحياناً ولم يمنعه ذلك من أن يكون مترجماً ممتعاً أميناً ومؤلفاً كبيراً . عن هذا الوصف ومن هذه الجهة وقفت أمامكم أؤبن فقيد العلم والعلماء .

أيها السادة :

إن شدة الذكاء وقوة النفس وحسن الإخلاص ، تلك الصفات التى ظهرت آثارها على فتحى باشا منذ شبابه الغض راجعاً معظمها إلى التأثير الوراثى من أبويه وعلى الأخص والدته التى أفاضت عليه من صفاتها بما يفيض الأصل ، وما غرست من المبادئ الصالحة مما جعل لفتحى شخصية ممتازة منذ صباه .

لا يأخذكم العجب من قولى فإن من أمهاتنا نحن القرويين ، منهن مع بساطة فى المدارك العقلية وبعد عن العلوم والمعارف ، على جانب عظيم من الذكاء الفطرى ورفعة الأخلاق وعزة النفس وذوق سليم فى الحكم وطيبة وتقوى فى المعاملات . ينقلن هذه الصفات لأبنائهن بحكم قانون الانتقال الوراثى ، فتكون لهم رأس مال فى الحياة العملية . ولولا هذه الصفات لهلك القرويون غير المتعلمين بما هم فيه من جهل عميق وما عانوا من استبداد طويل . ولكن هذه الصفات الأولية قد قامت فى نجاحهم مقام المعارف

زمناً طويلا ولا يزال الإتكال عليها وحدها يؤدى إلى الآن نتائجه المتواضعة فى بلادنا . فإذا جاءت العلوم والمعارف على هذه الصفات الأولية، ظهر النبوغ قلة وكثرة تبعاً لقوة الاستعداد أى لقوة تلك الصفات الوراثية .

فللأمهات القرويات أن يقبلن أيضاً شكر الجيل الحاضر . وعلينا أن نعترف علناً ومن غير تردد بما للأمهات من الأهمية العظمى من حيث توريث البنين والقيام على تربيتهم الأولى . وأمامنا المثل الحسى أن والدة فتحى باشا ينسب إليها الفضل الأكبر فى أن أخرجت لمصرنا نابغتين : نابغة نرجو له العمر الطويل . ونابغة فقدناه آسفين . فقدناه ونقدم اليوم للتاريخ منه صورة هى أقوم صور نوابغنا حجة لحسن الاستعداد وعلو الكفاءة العلمية والعملية جميعاً .

إن الصفات الأولية لفتحى من شدة الذكاء وقوة النفس وحدة المشاعر هن أساس نبوغه . كان يحمل نفساً على قوتها الهائلة ، رقيقة المشاعر قلقة لا تستقر أو تبلغ من خدمة العلم مناها . هيهات أن تبقى طويلا أمثال هذه النفس فى البيئات التى لا تلائم بقاءها ونجاحها . وهيهات أن تبلغ منى . كلما تقدمت اتسع أمامها أفق الأغراض وكلما انقضى سبب جاءها سبب جديد .

تعلم فتحى فصادفت القواعد العلمية من عقله مقاماً رحباً وقرت فيه أصولها . ووجدت منه نفساً طُلَعَة قوية فى مركزها ميالة للإنتشار فى مظاهرها الخارجية يناديه صوتها الخفى : أن وفِّ حق العلم . وأتِ زكاة النبوغ .

فأقدم منذ حداثة سنه على نشر العلم إجابة لداعى الضمير . أقدم على هذا المركب الخشن وكان الواجب عليه أن يقدم لأنه استكمل عدة الإقدام : ذكاء مضيء وعقل عاصم وعلم هاد ولسان عضب ذلق غواص على موضع الحجة وقلم سيال ومركز نبيل ! كيف لا يكون مقداماً من جمع بين كل هذه الأسباب ؟

لا أكاد ابرئ فتحى من الوقوع فى حيرة اختيار الطريقة التى يجب عليه اتباعها لخدمة العلم فى مصر : التأليف أو الترجمة وأيهما أنفع . وإذا كانت الترجمة فعلى أى نوع يقع الاختيار ؟ حيرة لا بد منها لشاب خارج من المدرسة تتضرم بين ضلوعه نار الشوق إلى مجد الوطن العلمى ، خلو من التجارب لا يملك إلا كفاءته العلمية .

نظر فتحى نظرة صادقة إلى حال الأمة المصرية وحكومتها فرأى أننا أحوج ما نكون إلى معرفة المثل الأعلى الذى نبغى الوصول إليه من نظاماتنا السياسية والاجتماعية ، حتى تتحد أطماعنا الوطنية على طريقة عامة واضحة :

ورأى فوق ذلك أن أول خطوة يخطوها المصلحون العلميون هى نقل العلم إلى أوطانهم بالترجمة . إن هذه الطريقة كانت هى ألف باء النهضة العلمية فى كل أمة وفى كل زمان .

هذا النظر المزدوج كان رائد فتحى باشا فى ترجمته منذ خرج من المدرسة إلى أن مات فإنه فى سنة ١٨٨٨ يترجم (العقد الاجتماعى) لجان جاك روسو فلم يتمه . ولـكنه ترجم بعـد ذلك « أصول الشرائع » لبنتام .

و « خواطر وسوانح فى الإسلام » للكونت هنرى دى كاترى (سر تقدم الانجليز السكسونيين) لاديمون ديمولان و (روح الاجتماع) و (سر تطور الأمم) لجوستاف لوبون . و (خطاب مصطفى فاضل باشا) نشر ذلك من مترجماته وله فوق ذلك (جوامع الكلم) لجوستاف لوبون . وقد وزع عليكم الليلة . وكتاب بورجار فى الاقتصاد السياسى . و (تمدن العرب) لجوستاف لوبون و (جمهورية افلاطون) و (الفرد ضد المملكة) لسبنسر . وكلها لم يتم تعريبها . أما مؤلفاته المنشورة فهى كتاب المحاماة ورسالة فى التزوير وشرح للقانون المدنى وقد ألف أخيراً كتاباً « فى التربية العامة » كنت أحلم أنه قد تم ولكنه لم يطبع .

قرأت مترجماته المنشورة . وتصفحت من غير المنشورة . وأستطيع بعد ذلك أن أقول من غير تردد إن فتحى كما كان نابغة فى الفقه كذلك كان نابغة فى الترجمة يمسك الكتاب يقرأه أولا ثم يدخل بنظره الحاد فى طيات نفس الكاتب فيظهر أسرارها بقلمه العربى المبين . ومن التراجم ما يترجم الألفاظ تحمل معانيها خالية من روح الكاتب وحرارته فلا يكون لها التأثير المطلوب إلا مترجمات فتحى فإنها تقرأ فيها المعانى والأغراض كأنك تقرأ كاتبها من غير فرق .

لفتحى باشا شخصية تامه ممتازة فى طريقته وفى أسلوبه البيانى .

أما نحوه فى الترجمة فليس هو الالتزام الحرفى للأصل ولا مجافاة الأصل . ولكن نحوه بين ذلك وسط مرضى .

أما أسلوبه فهو عربي خالص لا يعنى فيه بفضلة لزخرف المحسنات اللفظية ، ولكنه مع ذلك متين الرصف ظاهر الرشاقة جذاب جداً

لم يكن فتحى باشا يترجم ليترجم . ولا طلباً للشهرة أو المال من وراء التعريب . فانهما ليس سبيلهما فى بلادنا العلم والكتابة وكان حسبه شهرة مناصبه العالية وكفاءته التى ما كانت يوماً واحداً موضعاً للشك من أحد سواء فى ذلك أصدقاؤه وحساده ، عارفوه وغير عارفيه . ولكننا إذا جمعنا مترجماته دلنا مجموعها على أن فتحى كان له غرض ثابت يرمى إليه من وراء نشر هذه الكتب

غرضه نشر مبادىء الحرية . حرية الفرد . وحرية الأمة . وتنبيه أطماع الأفراد والأمة جميعاً إلى اتخاذ مثل أعلى قبلة لهم فى أطماعهم الوطنية . منذ سنة ١٨٨٨ كان يرى الأمة تتقلب فى أغراض أحياناً متعاكسة ودائماً مبهمة فكان يسيئه هذا النظر ويود لو أن الشعور الوطنى الذى كان وقتئذ فى حذر مستمر — يولى وجهه قبل الاستقلال على نحو منتج . كان يود لو يدركون أن إبهام الفرض وعدم إدراكه بوضوح ، يجعله مستحيل المثال . لذلك أراد أن يقدم للجمهور . (عقد الاجتماع) لروسو حتى يتبين الجمهور حق الفرد وحق الأمة . وما يجب أن يكون لها من السلطان . وللأسف لم يظهر هذا الكتاب مع أنه بلغ من ترجمته مبلغاً كبيراً . ولكنه أصدر بعد ذلك ترجمة بنتام فى أصول الحقوق والواجبات . حتى جاء الزمن الأخير وظهر الشعور الوطنى بمظهر جميل ولكن لا يزال فى مقاصده

بعض اللبس حتى فيما هو مكتوب من المبادىء فى الصحف ، وما الصحف إلا ترجمان الرأى العام . ولعل فتحى باشا أمام هذه المشاهدة أشفق على حرية الأفراد وتربية الأمة من الميل الظاهر إلى ما يشبه الاشتراكية . فإن الناس لم يقصدوا فى طلبتهم على حقوق الأفراد من الحرية وحق الشعب من السلطة ، بل أخذوا مع ذلك كله يطالبون الحكومة أن تقوم لهم بكل شيء . ومهما كان فى أساليب هذه المطالب من الانتقاد الضمنى ، إلا أن مثل هذه الحركة من شأنها أن تجعل الحكومة هى كل شيء والفرد لاشيء . الاشتراكية قد تكون معقولة إذا كان للأفراد شأن فى تنصيب الحكومة وإلا فإنما هى اشتراكية معكوسة النتائج . فأخذ فتحى باشا عن بعد يهدى الأفراد إلى وجوب الاستمساك بشخصيتهم ويبين لهم أن التربية الشخصية هى التى كانت (سر تقدم الانكليز السكسونيين) . يطالب إلى المصريين أن يتشبهوا بهؤلاء وأن لا يفنو شخصيتهم فيفنى وجودهم . واستطرادا فى هذا النظر تصدى إلى ترجمة (الفرد ضد المملكة) وروح الاجتماع وسر تطور الأمم . كل ذلك ليبقى فى الجمهور الأسس العلمية للرقى حتى يطبق الناس حالهم على هذه الأصول فينتفعوا بتجارب الأمم .

أيها السادة :

ان التوفيق بين منتخبات فتحى باشا للترجمة ينتج فوق ما قدمنا أنه كان يعتنق مذهب الحريين سواء كان ذلك فى التربية والتعليم أو فى الأصول الاجتماعية والسياسية بل الاقتصادية أيضاً . لأنه لو كان اشتراكياً

فى الاقتصاد لما عمد إلى ترجمة بورجار بل كان عمد إلى ترجمة أحد الاقتصاديين الاشتراكيين الظاهرين بالاشتراكية .

ولو شئنا أن نبين عقائد فتحى باشا من منتجاته ومن أحاديثه لضاق بنا المقام ، ولكنى أكتفى الآن بالإشارة إلى أن بين اختيار فتحى لتلك المؤلفات و بين مذهبه الحرّىّ فى محاولة الإصلاح الاجتماعى والسياسى نسباً متصلا جد الاتصال .

حسبى الإشارة إلى ذلك و إلى أن فتحى باشا كان ذا مبادىء ثابتة وطرائق معينة فى كل شىء . فكما انه ابتدأ فى خدمة العلم الابتداء الطبيعى وهو نقل العلم إلى البلاد ، كذلك كان يرى أن البدء فى الارتقاء الاجتماعى والسياسى لا يكون بأخذ ثمرات آخر تطور للمبادىء الاجتماعية والسياسية فى الأمم التى تمدنت من قبلنا ؛ ولا شك فى أن ادخال المبادىء الاشتراكية فى آخر تطورها الحاضر على أمة ناهضة من عقال الاستبداد نتيجة اضطراب خطر قد يكون ضرره أكثر من نفعه .

من ذلك نأخذ ان فتحى باشا كان رجل ارتقاء لا رجل ثورة . إنه كان يكره الثورة ، يكرهها بكل مظاهرها حتى الفكرية منها . فكما إنه كان يرى أن خير القوانين ليس هو القانون الحسن فى ذاته ، ولكنه القانون الذى يحتمل الشعب تطبيقه ، كذلك كان يرى أن خير المبادىء الاجتماعية والسياسية هو ما كان بينه و بين طبائع الشعب وعاداته نسب ، تكمل ما فيها من نقص وتقوم ما بها من اعوجاج .

كان فتحى يسترشد بهذه الآراء الحرة العريقة فى الحرية . فاذا لم يكن نشرها ليتفق مع مركزه فى الحكومة ، فلقد نشرها بالترجمة والعقل ليرضى دواعى ضميره وليثابر على تربية قومه تربية صالحة على قواعد ثابتة مع معرفة الحقوق والواجبات . فليس فقيدنا رحمه الله من أرباب المناصب . بل هو على ذلك من أرباب المذاهب ومن هو كذلك ، من شأنه أن يكون شقياً بغرضين معذباً ضعفين . يكاد لا يكون له من وقته شيء . فهو يقسم بين الأعمال الرسمية الشاقة و بين خدمة العلم ، يعمل لها بالتأليف والترجمة شطر الليل وأحياناً طول الليل ومدة العطلة . فاذا لامه في ذلك أصدقاؤه هز كتفه هزة فيلسوف لا يبالى مات اليوم أو مات غدا .

نعم كان المؤلف فتحى يعتقد إن الحياة تقدر بما يتم فيها من العمل الصالح لا بعدد السنين .

يكاد كلامى يلقى فى الأذهان من فتحى باشا صورة عالم استغرقته أغراضه وشغلته همومه فزهد فى الجمعية وفرط فى القيام بالاصطلاحات المدنية . كلا . إن فتحى باشا على ذلك كان مترفاً فى عيشته متأنقاً فى مظاهرها المختلفة . كثير الاختلاط لا تفوته عيادة مريض من أصدقائه ولا رد لزيارة ولا مؤاساة معارفه فى أحزانهم . كذلك لا ينقبض عزمه عن شهود حفلة أنس . ولا تلوى به همومه ومشاغله عن الاعتناء باقتناء التحف والطرف وتعرف أوضاع الجمال حيث كان . رحمه الله . كان على علمه العميق ومنزلته العالية رجلا غاية فى الوداعة والظرف .

من ذلك يظهر لى أن فتحى باشا كان يعتقد الحياة الفردية كلا واحدا من حقه أن يكون متعادلا فى جميع مظاهره وأن اعتدال السلوك لا يتم إلا بهذا التعادل فكما يجب على المرأ أن يخدم عقله كذلك يجب عليه أن يخدم مشاعره ، حتى لا تعطل ملكة من الملكات تضحية لملكة أخرى . ولا شك فى أن خير قاعدة تنتج المثل الأعلى للرجل الكامل بمعنى الكلمة هى قاعده تنمية ملكات الإنسان وقواه بنسبة واحدة .

كذلك كان فتحى باشا . وعلى هذا كنا نراه فى شئونه . غير أن الاستثناء كان يلحق لديه هذه القاعدة أيضاً . فإنه يظهر لنا من جهة أخرى أنه كان يضحى قواه الجثمانية في سبيل شهوته العلمية .

وهذا المثال مع الأسف هو وقلة الحرص على المال كأنهما أمران عامان فى كثير من أبطال العلم وخدمة الأوطان .

عفواً . أيها السادة . ليس فتحى فى عداد الموتى الذين يؤ بنون بقولة واحدة تردد لكل منهم على السواء : كان وكان . . . وعليه الرحمة والرضوان . ان فتحى ليس ملكاً لأهله وأصدقائة بل هو ملك التاريخ وبهذا العنوان يجب علينا دراسته . إنه صورة كبرى من أكبر صور النبوغ المصرى بروزاً وأولاهم بالعناية والدرس انه رجل كبير . كبير فى عقله وفى عواطفه بل فى اطماعه أيضاً . وما كان يبين عليه أن اقتناء المال داخل فى برنامج اطماعه . أقول وليس هو فى هذا المعنى استثناء من عظماء الرجال أمثاله . أولئك الذين ماتوا ولا أصفر ولا أبيض ، كأنهم الأنبياء لايورثون .

فان لم يتركوا تراثاً فقد تركوا مجداً خالداً .

نعم إن اطماع فتحى باشا كانت كبيرة متناسبة مع كفاءته وثقته بنفسه ولكنها لم تكن من الأطماع الشخصية فى شىء . إنه كان يألم لما نحن فيه ويرجو أن يكون له من السلطة مايسهل لقومه سبيل التقدم إلى الأمام — قد تكون هذه العلة هى العذر العام الذى ينتحله كل المغرمين بالمناصب العالية .

ولكن فتحى ليس من هؤلاء ، لأنه كان ينفذ الخطة التى رسمها لمشاغله العمومية ، فأخذ يسهل التقدم بقلمه ومن الطبيعى أن يرجو أن يسهله بعمله أيضاً فيكون بذلك قد جمع بين سببى النفع ، لا كصديقه روسو الذى قال لو كنت شارعا أو أميراً لاعتضت عن الكتابة فى السياسة بتحقيق ماأقرر من المبادئ . على أني يجب على فى هذا الموقف أن أسارع إلى التصريح بأن فتحى لم يقدم بين يدى اطماعه إلا كفاءته . أما شخصيته واستقلاله فى الرأى فلا دخل لهما فى هذه الصفقة . بل ربما كان حجر عثرة فى سبيل ارتقائه .

على أن فتحى باشا مهما كان محسود القدرة ، فإنه كان دائماً عمدة الحكومة فى كثير من المشروعات الدقيقة التى تحتاج إلى مفاوضات بين جهات مختلفة وموضع الاستشارة عن نظارته وغير نظارته فى وضع القوانين . كما تشهد به الألسن الرسمية والتقارير الرسمية .

أيها السادة — كنا نكرم فتحى باشا فى نحو هـذا الأوان من العام الماضى ونتوج مؤلفاته . وهانحن أولاء جئنا اليوم نؤبنه ونتأسف على وفاته . فما أقل هذا الوجود حرصاً على الرجال النافعين !

أيها السادة — ان صورة فتحى باشا الذى اشترك فى رسمها جميع خطباء هذه الحفلة الممثلين للمعانى والطبقات المتباينة ، صورة ندخرها عند الزمان على أنها طليعة النهضة العلمية وأثر من آثار المجد المصرى الفخيم . ولتكون قدوة للنابغين من أبنائنا على مر الزمان . فاللهم لعبدك الأمين فى خدمة العلم رحمة ، ولبلاده عزاء ، إنك أنت السميع المجيب .

الحرب

وقع ما كان يخشاه العالم بأسره . وعم الخطب ولم يبق بعد سبيل إلى السلام . فلم يكن لينتظر أن الخلاف المحلى الذى قام بين النمسا والصرب يصل إلى هذه النتيجة السوداء على العالم ، وهنا مورد المثل المشهور . ومعظم النار من مستصغر الشرر .

اليوم وإلا أبداً ، وفى هذا الحادث وإلا فلا ، تلهب أوربا شرارة واحدة ويعم العالم بأسره الضرر البليغ بحجة أن صربيا والنمسا لم تتفقا على الوسائل القضائية لمحاكمة فى جناية ! !

عجزت السياسة والمفاوضات السياسية والوساطات الملوكية والإمبراطورية عن تأييد السلم وحقن الدماء وحماية مصالح الناس ، وانفرد الشر بالحكم فى أوروبا إذ نفخ فى صوره ففزعت لدعوته الملايين من الناس انقلبوا عن صورهم المدنية ، فأصموا آذانهم عن دعوة الإخاء الإنسانى ، واستدبروا نهائياً مبادىء المحبة والغفران والسلام وغشى الغضب أبصارهم فلم يعودوا يفكرون فى الخسارة العظمى التى يجنيها المحاربون من وراء الحرب . يكتسبونها جميعاً سواء فيهم الغالب والمغلوب . واستهانوا بالإضرار التى

الجريدة فى ٢ من أغسطس سنة ١٩١٤ العدد ن ٢٢٥١ . وهى الحرب العالمية الأولى

تلحق العالم بأسره من وراء هذه الحركة التى فيها ليس من البركة شىء .

تلك حرب ولا كالحروب يجب أن يشفق كل من فى العالم من جرائها على المحاربين وغير المحاربين والمصطلمين بأسبابها ونتائجها والغافلين فإن حروب هذا القرن ليست كحروب القرون الأولى .

فإن المدنية الحاضرة قد جعلت الكرة الأرضية أشبه بالوطن الواحد فى المنافع الاقتصادية التى هى أساس العمران بل علة الحياة . أجزاؤه متضامنة فى الخير والشر . أقفلت أسواق أوروبا وميزان الحركة الاقتصادية العامة معلق بين أصابعها فأخلت بالموازنة فى كل شىء حتى فى أسعار الأقوات فى كل البلاد . وأصبحنا فى مصر ونحن بمركزنا الاستثنائى بعداء عن هذه الحركة الحربية . أصبحنا فى أول يوم من إعلان ألمانيا الحرب نشعر تماماً بالرجات الشديدة التى حصلت فى سوقنا المالية بل فى أبعد الأسواق علماً بأن فى أوروبا حرباً . وعلى هذا القياس كل أنحاء الكرة الأرضية . أفلا يعلم الذين تعلن الحرب بكلمة من أفواههم مقدار المسئولية التى يحملونها بهذه الكلمة الكبرى التى تسفك الملايين من دماء الأبرياء . الأبرياء بالمعنى الصحيح الذين يتمثلون بقول القائل :

لم أكن من جناتها علم اللـــــه وأنى لحرها اليوم صالى

يقاد أحدهم من الدار إلى النار لا دفاعاً عن وطن مهدد ولكن إرضاء لشهوات العظماء . إرضاء لرؤساء الأحزاب . إرضاء لكلمات ضخمة مجوفة

برن رنين (آمون) وليس فى بطنها من الحقيقة شيء كبير ولا صغير . رحم الله جوريس أول قتيل لهذه الحرب وأول ضحية من الضحايا الذاهبة اليوم وغداً فى سبيل الحق والسلام .

يا لله من مسئولية هذه الحرب عديمة المثال ! كيف يستطيع رجل أو جماعة احتمالها ؟ لا أحد . لإنها إذا أمكن تبريرها كيف يمكن تبرير جرائرها وجرائمها . علم ذلك إمبراطور ألمانيا فأخذ يتنصل من مسئوليتها و يلقيها على عاتق الروسيا وأخذت المصادر الألمانية تعلن للعالم أن روسيا هى التى يجب أن تحتمل مسئولية توسيع ميدان النار عن النطاق الذى كانت محدودة به . ونن نعدم غداً إعلاناً من روسيا يلقى التبعة على ألمانيا وربما قامت الحرب وخربت ما قدرت على تخريبه من العالم ووضعت أوزارها ولا تجد فى الممالك من تعترف بأنها التى أذكت نارها واحتملت مسئولية نتائجها . ومهما كانت المسئولية فوق كل طوق ، ومهما كانت النتيجة على كل حال أسوأ ما يكون ، فمن الأسف أن كل ما كان ، منطبقاً على طبائع الإنسان . وما كان للإنسان أن يخرج عن طباعه العامة . وكما أن أوروبا تقلبت فى نعمة العز والسلام . كذلك من الطبيعى أن تتمرغ فى جحيم الارزاء والاكدار . وكلا الحالين من صنعة يديها : جنتها ونارها ، سلامها وحربها ، إذ إن الانسان لا يصبر على حال واحدة . قتل الإنسان ما أكفره !

هذا وإن لنا فى مصرنا مصالح تجب علينا رعايتها فى هذه الظروف

الصعبة .نحن على الحياد بالضرورة وسنظل كذلك مهما اتسعت دائرة الحرب عما هى عليه الآن . ولكن الحيطة فى خفارة الثغور والحدود على قدر الحياد ضرورية جداً . فإن التجارب دلت على أن استبعاد وقوع السوء غير مبعد له بالفعل ، ولا هو يعتبر وقاية منه . فلا نحن ولا غيرنا يستطيع أن يعلم الآن بالضبط عند أى الحدود يقف هذا الحريق الأرضى العام .

أما من الجهة السياسية فإن مركز مصر الاستثنائى يحتم على ولاة الأمور فيها اتباع تقاليدنا الحديثة فى الحياد التام مهما كانت الظروف ، وقد جربنا الثمرات الطيبة التى جنتها مصر من حيادها .

وأما الجهة الاقتصادية فقد علمنا أن الوزارة تشتغل بالوسائل اللازمة لوقايتها ، والواجب هو العمل لمنع تصدير الذهب ومنع تصدير مواد القوت منعاً نهائياً .

لسنا ندرى إلى أى وقت يطول عمر الحرب . ولقد يظن أن الاستعداد السابق وتلاحق المحاربين فى الحدود من شأنهما أن يجعلا مدة الحرب قصيرة نوعاً ، ولكنه ليس بعيداً أن تطول أشهراً . ولقد يظن المتفائلون أن انكلترا تكون على الحياد ويرجحون أن حيادها وحياد إيطاليا فيهما بريق الأمل فى تقصير مدة الحرب ، ومقدمة إلى أن انكلترا تتوسط بين المتحاربين. يقولون ذلك على الرغم من أن سفير انكلترا قد أكد لرئيس جمهورية فرنسا تعضيد دولته لفرنسا وفرنسا داخلة غمار الحرب لا محالة . على أن

اشتباك النمسا وروسيا وألمانيا وفرنسا فى حرب واحدة كلها تدخل إلى ساحاتها بملايين العساكر والبنادق وبالمدافع البرية والعمارات البحرية ، كفيل بالخطر العام على العالم أجمع .

فهرس

١٦٥٠/١/٣/١٩٤٦